



أشجار الحب

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

أشجار الحب

عيناك حديث يجمعنا
بشفاه الهمس ينادينا
أشجار الحب تظللنا
وفروع الزهر تناجينا
وثمار اللهفة تنقلنا
لنطوف بأرض أمانينا
ورياح العشق تداعبنا
بنسائم عطر يشجينا
وشغاف القلب تخاطبنا
فليبق الحب بوادينا

(نبيل)

١ ـ الأسرة ..

أشرقت شمس نوفمبر الدافئة ، على واحدة من قرى مصر ، وسقطت أشعتها ـ أول ما سقطت ـ على سراى قديم من طابقين ، يلوح للناظر أن يداً لم تمتد إليه بالرعاية ، منذ زمن طويل ، أو قد يخيل للمرء أنه بناء مهجور ، لولا تلك المنضدة الجديدة ، التى تحيط بها بضعة مقاعد ، تكثفت فوقها قطرات الندى ، فى منتصف حديقة السراى ، التى تمرُّ أمامها الترعة الوحيدة فى القرية ، والتى تمتد لتروى أراضيها كلها ، قبل أن تواصل امتدادها ، كشريان لحياة القرى المجاورة ..

كان سراى (رفعت باشا المندور) ...

كان السراى يحمل هذا الاسم بالفعل ، على ألسنة سكان القرية ، على الرغم من إلغاء لقب (باشا) هذا ، مع قيام الثورة ، منذ ما يزيد على الثلاثين عاماً ..

ولو أننا عدنا إلى الوراء ، إلى ما قبل قيام الثورة بعام واحد ، لرأينا هذا السراى فى أبهى صورة ..

كان فى ذلك الزمن القديم أعلى بناء فى القرية ، وأجملها ..

كان يزهو ببطلائه اللامع ، ونوافذه البرّاقة ، وحديقته الغنّاء ، التى كانت تنتشر فيها أشجار البرتقال ، والمانجو ، والجوافة ، التى ينقل الهواء روائحها العطرة ، فتفوح فى المكان رائحة الفاكهة الطازجة الشهية ..

وكان (رفعت باشا) يمتلك ثلثى أراضى القرية ، ولكنه لم يكن متكبراً ، أو متعجرفاً ..

كان حانياً .. رقيق النفس .. حلو الشمائل والخصال ..

وكانت زوجته (سنية هانم) تفوقه حنوًّا ورقة ..

كان من المعتاد فى كل صباح أن يراهما أهل القرية ، وهما يتناولان طعام الإفطار فى الحديقة الجميلة ، ولم يكن أحدهما يبخل على المارين بتحية باسمة ، أو دعوة كريمة لمشاركتهما الطعام ..

ثم جاءت الثورة ، وجاء معها قانون الإصلاح الزراعى ..

واستسلم (رفعت باشا) للقانون ، الذى انتزع منه معظم أراضيه ..

استسلم كعادته فى الاستسلام لكل ما لا يملك شيئاً إزاءه ..

وبعد خمس سنوات من قيام الثورة ، أنجبت (سنية هانم) مولودها الأول (أحمد) بعد عشر سنوات من زواجها بـ (رفعت) ، واحتفلت القرية كلها بـ (أحمد) ..

انعكس عليه حبهم لوالديه ، فأحيط بالحنان منذ اللحظة الأولى لمولده ، وخفف مقدمه الكثير من أحزان الأب ، على لقبه الضائع ، وأرضه المفقودة ..

وبعد عامين جاء المولود الثانى (صابر) ، ثم لحقه الابن الثالث (رأفت) ..

ونما الأطفال الثلاثة وسط القرية ، التى أصرّ سكانها على تسميتهم بـ (أولاد الباشا) ، كجزء من إصرارهم على لقب (رفعت باشا) ، كأن القرارات التى صدرت بإلغاء الألقاب لم تبلغ آذانهم بعد ، أو أنهم

يتعمدون تحديها ، بأسلوب الفلاح المصرى العنيد ، الذى يخدع الجميع دوماً بمظهره الذى يوحى بالسذاجة والبساطة ..

وذات يوم من أيام سبتمبر ، بعد عشرين عاماً من قيام الثورة ، ذهب (رفعت باشا) للقاء ربه ، ورحل عن عالمنا ، تاركاً زوجته لترعى أبناءه الثلاثة ..

ولم تحتمل (سنية هانم) رحيل زوجها الحنون ، فغادرت السراى إلى القاهرة ، حيث التحق أولادها الثلاثة بمراحل التعلم المختلفة ، ولم يعد السراى يحظى باهتمام أحد ، إلا فى أيام الأعياد ، أو الإجازات الطويلة ، حيث كان يحلو للأبناء الثلاثة قضاء بعض الوقت ، فى المكان الذى شهد طفولتهم ، وحياتهم الأولى ..

وكثيراً ما جلست (سنية هانم) تتأمل أبناءها الثلاثة ، وتتساءل فى أعماق نفسها عن سر اختلاف مشاربهم ، وطبائعهم ..

كان أكبرهم (أحمد) ممشوق القوام ، فارع الطول . يولى اهتمامه الأكبر للألعاب الرياضية ، وبخاصة

الرياضات العنيفة ، مما أعطاه مظهراً قوياً ، وأورثه ثقة زائدة بنفسه ، يخالطها بعض الغرور والتكبر ..

الابن الأوسط (صابر) ، هادئ الطباع ، رصين .. ميله إلى القراءة والفنون منحه نفساً هادئة حساسة ، حتى أنه كثيراً ما يذهب إلى السراى ، ليتمتع بهدوء الريف ، وجمال الطبيعة ، وكان يأنف العنف إلى حد كبير ، حتى أنه كثيراً ما انهمك فى نقاشات يائسة مع شقيقه الأكبر ، حول ذلك النوع من الرياضات العنيفة ، التى يمارسها (أحمد) ، ويجد لذته فيها ..

أما الابن الأصغر (رأفت) ، فمن الصعب أن يتعرّف أحد هويته ، أو يسبر أغواره .. فهو غامض دائماً ، حتى بالنسبة لوالدته ..

إنه لا يشارك أبداً فى أحاديث العائلة ، وإنما يكتفى بالإنصات ، وفوق شفتيه ابتسامة هادئة ، لا تشف أبداً عن انطباعه عما يسمع ..

وكان من العسير على أى مخلوق أن يتنبأ بما يفكر فيه (رأفت) ..

حتى فى يوم وفاة والده ..

يومها انهار (صابر) حزناً ، وبكى (أحمد) فى حرارة ، ولكن (رأفت) لم يبك ..

كان هو الوحيد، الذى ظل متماسكاً طوال الوقت، ولم تذرف عيناه دمعة واحدة ، حتى وارى والده التراب ، وكان هو الوحيد أيضاً ، الذى ما زال يحرص على زيارة قبر والده ، على الرغم من مرور خمسة عشر عاماً على وفاته ..

كان الثلاثة يشتركون فى حمل ملامح والدهم ،بوجهه المستطيل ، وفمه الصغير ، وأنفه المستقيم ، ولكن (أحمد) اكتسب شعر والده المجعّد الكثيف ، حتى أنه بعد إطلاقه شاربه ، بات نسخة من والده فى شبابه ، أما (صابر) فقد ورث عينى أمه الواسعتين الزرقاوين ، وحصل (رأفت) على شعرها الأسود الناعم ..

كانت هذه هى أسرة (رفعت باشا) ، بعد خمسة وثلاثين عاماً من قيام الثورة ..

كان (أحمد) فى الثلاثين من عمره ، يحمل شهادة

بكالوريوس التجارة ، ويعمل فى واحدة من شركات الاستثمار ، بمرتب ممتاز ، زاد من إحساسه بالقوة والثقة ..

و (صابر) فى الثامنة والعشرين ، حصل على ليسانس الآداب ، وعلى وظيفة مترجم فى إحدى دور النشر الكبرى ، مما أشبع نهمه إلى القراءة، والاطلاع ..

أما (رأفت) ففى السادسة والعشرين ، تخرج فى كلية الزراعة بتقدير جيد ، ولم يحصل على عمل بعد ..

(سنية هانم) تجاوزت الستين من عمرها ، ولكنها لم تفقد الكثير من جمالها ، ولا رجاحة عقلها، واتزانها ..

ما زالت ترعى أولادها الثلاثة ، كما كانت تفعل وهم أطفال صغار ..

وكان الوقت فى صيف عام ألف وتسعمائة وسبعة وثمانين ، والأسرة كلها تقضى بعض الوقت فى السراى القديم ، عندما بدأت قصتنا ..

عندما اقتحمت (مشيرة) أسرة (رفعت باشا) ..

* * *

٢ ـ مشيرة ..

فى نفس اليوم الذى ولد فيه (رأفت) ، فى سراى والده (رفعت باشا) ، وُلدت (مشيرة) فى حى شعبى من أحياء القاهرة ..

كان والدها (فهمى حسنين) موظفاً بسيطاً فى وزارة المالية ، وكانت زوجته تنجب كثيراً ، ولكن الموت كان أسرع منها فى اختطاف مواليدها ، حتى جاءت (مشيرة) ..

يوم مولدها أطلقت القابلة زغرودة قوية ، لم تلبث أن خبت فوق شفتيها ، حينما لاحظت القلق المخيم على المكان ..

كانت الأسرة تستقبل (مشيرة) ، وهى تضع يدها على قلبها ، خوفاً من أن تلحق بإخوتها ، فى العالم الآخر ..

ولقد كان جسد (مشيرة) لحظة مولدها يوحى بذلك ، فقد ولدت نحيلة ضئيلة ، تزن كيلوجرامين ونصف ، ولكنها كانت تبتسم ..

ابتسامتها عند مولدها غرست فى نفس أبيها تفاؤلا ، فصاح يومئذ :

ـ إنها تشير إلى تبدّل حظنا فى الإنجاب .

ومن هنا جاء اسمها (مشيرة) ..

ولكن أمها ظلت تبكى كلما أرضعتها ، وكلما شاهدت ابتسامتها ، وكأنها لم تعد تثق فى بقاء أى مولود لها على قيد الحياة ..

ولكن (مشيرة) نمت وترعرعت ، وتحدت الموت الذى اختطف أشقاءها ، وازدادت سعادة الأب والأم بنموها ، حتى صارت لهما كل شىء فى الدنيا ، وفرحتها هى كل سعادتهما ..

وعندما بلغت (مشيرة) الثامنة عشرة من عمرها ، كان والدها قد حصل على الدرجة الثانية ، وأصبح موظفاً كبيراً ، وانتقلت الأسرة إلى منزل جديد ، فى أحد الأحياء الراقية ، والتحقت (مشيرة) بكلية الزراعة ، وقبل أن تتخرج فيها ، كان والدها قد تبوأ منصب المدير العام ، فى إحدى الشركات الجديدة ..

كان الوالد يفخر دائماً بابنته ، وبكفاحه ..
كان يقول دائماً : إن هذا هو رزق (مشيرة) ، التى جلبت الخير للأسرة مع مولدها ..

وبعد تخرج (مشيرة) ، نجح والدها باتصالاته فى تعيينها فى وزارة الزراعة ، حيث تسلمت منصب مدير الجمعية الزراعية ، فى قرية صغيرة ..

قرية (رفعت باشا المندور) ..

وفى ذلك اليوم من أيام صيف يوليو ، وبينما أسرة (رفعت باشا) تتناول طعام الإفطار فى حديقة السراى ، التى لم تعد تفوح برائحة الفاكهة ، قالت (نبوية) الخادمة ، وهى تصفّ أكواب الشاى :

ـ هل رأيت هذا الزمن الجديد يا (سنية هانم) ؟.. لقد جاءوا بفتاة من القاهرة ، لترأس الرجال فى الجمعية الزراعية .

ابتسمت (سنية هانم) فى رصانة ، وقالت :

ـ هذا هو الزمن الجديد يا (نبوية) .

وقلب (أحمد) شفتيه فى امتعاض ، وهو يغمغم :

ـ فتاة ترأس الرجال ؟!.. يا للمهزلة !!

واندفع (صابر) يقول فى حماس :

ـ هذا رائع .. كنت واثقاً أن المكاسب التى حصلت عليها المرأة ، فى السنوات الماضية ، سوف تصل بها يوماً إلى ...

قاطعه (أحمد) ، وهو يلوّح بكفه فى ضجر :

ـ ألم تسأم بعد تلك العبارات الفلسفية السخيفة .

عقد (صابر) حاجبيه ، ومطّ شفتيه فى ضيق ، ولكنه لم يواصل حديثه ، واكتفى بأن يرتشف كوب الشاى فى حنق ، على حين ابتسمت (سنية هانم) فى حنان ، وساد الصمت لحظة ، ثم سأل (رأفت) (نبوية) فى هدوء :

ـ هل تعرفين اسمها يا (نبوية) ؟

ابتسمت نبوية فى خبث ، وأجابت :

ـ بالطبع .. كان هذا أول ما سألت عنه .

انتظرت وهلة أن يسألها عن الاسم ، ولكنه اكتفى بابتسامته الهادئة ، فتنهدت وهى تقول :

— اسمها (مشيرة فهمى) .. ابنة وحيدة لـ ..

لم يسمع (رأفت) باقى عبارتها ، فقد كان اسمها يكفيه ..

عاد بذاكرته فجأة إلى الوراء ..

وتذكرها ..

تذكر أيام دراسته بالكلية ، و (مشيرة) التى كانت زهرة دُفعته بلا منازع ..

ما زال يذكرها بوجهها الرقيق ، المائل إلى الاستدارة ، وشعرها الأسود الطويل ، الذى ينتهى أسفل كتفيها باستدارة أنيقة ، وحاجبيها الرفيعين ، اللذين يرسمان إطاراً علويًّا لعينيها السوداوين الواسعتين ، وفمها الصغير الرقيق ، الذى يعلو طابع الحسن فى منتصف ذقنها ..

ما زال يذكر ابتسامتها الرقيقة ، التى لا تفارق شفتيها أبداً ، وروحها المرحة المتفائلة فى اتزان ورصانة ، وثيابها المحتشمة الوقورة الأنيقة ..

كانت فى رأيه دائماً مثالاً للفتاة العصرية المهذبة ..

ولكنه لم يصارحها بهذا الرأى أبداً ..

كعادته احتفظ بهذا الرأى لنفسه ، ولم تشفّ ملامحه عنه أبداً ، حتى فى المرات القليلة ، التى تبادل فيها الحديث معها ، ولم يَعْدُ حديثهما فى تلك الأحايين بعض الحوارات الدراسية ، أو المناقشات العلمية ..

ولكنه فى هذه اللحظة شعر برغبة شديدة فى رؤيتها ..

لم يدر سبباً لرغبته هذه ، ولم يحاول البحث عن السبب كعادته ، وإنما ترك ذهنه يسترجع ملامحها فى هدوء ، حتى انتبه على صوت شقيقه الأكبر ، وهو يقول فى حنق :

— ماذا أصابك ؟ .. إننى أتحدث إليك منذ دقيقة كاملة .

رسم (رأفت) ابتسامته الهادئة على شفتيه ، وهو يسأل شقيقه :

— ماذا تريد ؟

سأله فى خشونة :

— سألتك : هل تعرفها ؟

شرد (رأفت) ببصره لحظة ، ثم قال :

ـ نعم .. لقد كانت زميلة لى فى الكلية .

عقد (أحمد) حاجبيه ، وقال فى سخط :

ـ زميلتك ؟! .. وكيف حصلت على هذا المنصب إذن ؟

هزّ (رأفت) كتفيه ، وأجاب فى هدوء :

ـ لست أدرى .

عاد (أحمد) يقلب شفتيه فى امتعاض ، وهو يغمغم :

ـ يا له من زمن !!

خيّم الصمت لحظة ، والجميع يرتشفون الشاى ، ثم وضع (رأفت) كوبه على المائدة ، ونهض من مقعده فى هدوء ، فسألته أمه فى (حنان) :

ـ إلى أين ؟

ابتسم (رأفت) فى هدوء ، وقال :

ـ سأتنزه قليلا .

كان هذا الجواب المقتضب يكفى الجميع ، فعادوا يرتشفون بقايا أكوابهم ، فى حين دسّ هو كفيه فى

جيبى سرواله ، وسار فى خطوات متئدة هادئة ، مجتازاً حديقة السراى إلى الخارج ..

استنشق الهواء فى عمق ، وهو يسير وسط الحقول ، وشعر باختلافه التام عن هواء المدن ، وابتسم وهو يتأمل رجلاً انهمك فى حرث حقله ، ورفع يده يلوّح له بالتحية ، وهتف الرجل يدعوه لتناول كوب من الشاى ، ولكنه اعتذر فى رقة ، وواصل سيره وسط الحقول ..

كانت سيرته وسط القرية ، تعكس بساطته ، وحب أهل القرية ، الذى لم يتلاش بعد ، لأسرة (رفعت باشا) ، ولقد ذكّرهم هو بوالده ـ رحمه الله ـ وهو يوزع تحياته وابتساماته العذبة الهادئة على الجميع ، حتى قادته قدماه إلى الجمعية الزراعية ..

توقف بغتة حينما وقعت عيناه على مبنى الجمعية الصغير ، المكون من طابق واحد ، وكأنما أدهشه أن وصل إلى هناك ، ثم لم يلبث أن ابتسم ، حينما اعترف لنفسه أن هذه كانت رغبته ..

عاد يسير فى هدوء إلى الجمعية ، وعبر بابها

الخشبى القديم ، ثم توقف ، وشعر باختلاجة عجيبة فى قلبه ، لم يعهدها فى نفسه من قبل ..

كانت (مشيرة) تجلس أمامه ، خلف مكتب قديم ، وقد انهمكت فى مطالعة بعض الأوراق ، وعلى بعد مترين إلى يسارها ، جلس الموظفان الوحيدان فى الجمعية ، يتشاركان مكتباً أكثر بلًى وقدماً ..

لم تنتبه (مشيرة) لمقدمه ، فى حين نهض الموظفان ، وعلى شفاههما ابتسامة ترحاب ، وهتف أحدهم :

ـ مرحباً يا (رأفت) بك .. لم نرك منذ زمن طويل .

غمغم (رأفت) بكلمة ترحاب ، دون أن يدير عينيه عن وجه (مشيرة) ، التى رفعت عينيها إليه ، وهتفت فى مرح ، وهى تبتسم ابتسامة عذبة :

ـ (رأفت المندور) ؟! يا لها من مفاجأة !! تفضل على الرحب والسعة .

تصافحا فى مرح ، وقدمت له (مشيرة) المقعد الإضافى الوحيد فى الحجرة ، وهى تقول ضاحكة :

ـ لقد سبقتنى بهذه الزيارة يا (رأفت) ، كنت أنوى زيارة السراى الخاص بأسرتك اليوم .

سألها وهو يبتسم فى هدوء :

ـ هل كنت تعلمين أنها قريتى ؟

ضحكت ، وأشارت إلى دفتر كبير ، وهى تقول :

ـ لم أكن أعلم فى الواقع ، ولكننى قرأت اسمك فى دفتر الحيازات الزراعية ، وعلمت من أهل القرية أن أسرتك تمتلك رقعة كبيرة من أرض القرية .

أدهشه اهتمامها بوجوده فى القرية ، على الرغم من علاقتهما الواهية فى الكلية ، ولكن دهشته لم تبد فى ملامحه كعادته ، وإنما ابتسم وهو يقول فى هدوء :

ـ إنها خمسون فداناً طبقاً للقانون .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم قالت (مشيرة) وهى تبتسم :

ـ لم أكن أعلم أنك من أعيان القرية .

أجابها فى هدوء :

– لست كذلك .. ربما ينطبق هذا اللقب على والدى – رحمه الله .

خيّل إليها أنها قد طرقت جزءاً حساساً من نفسه ، فصمتت لحظة ، وهى تنتظر أن يتكلم هو ، ولكنه لم يفعل ..

كان يتأمل ملامحها فى تمعن عجيب ، أثار فى نفسها الخجل ، فاغتصبت ضحكة مفتعلة ، وهى تقول :

– هل هناك خدمة يمكننى تقديمها لك ؟

هزّ رأسه نفياً ، وسألها فى صوت هامس ، خيّل إليها أنه يحمل حنان الدنيا كلها :

– متى ستأتين ؟

سألته فى دهشة ، وقد أربكها هذا الأسلوب ، الذى لم تعتده منه فى الكلية :

– آتى إلى أين ؟

أجابها فى بساطة :

– لزيارة السراى .. ستسعد والدتى كثيراً بمقابلتك.

ابتسمت وهى تقول فى ارتباك :

– بعد انتهاء موعد العمل بإذن الله .

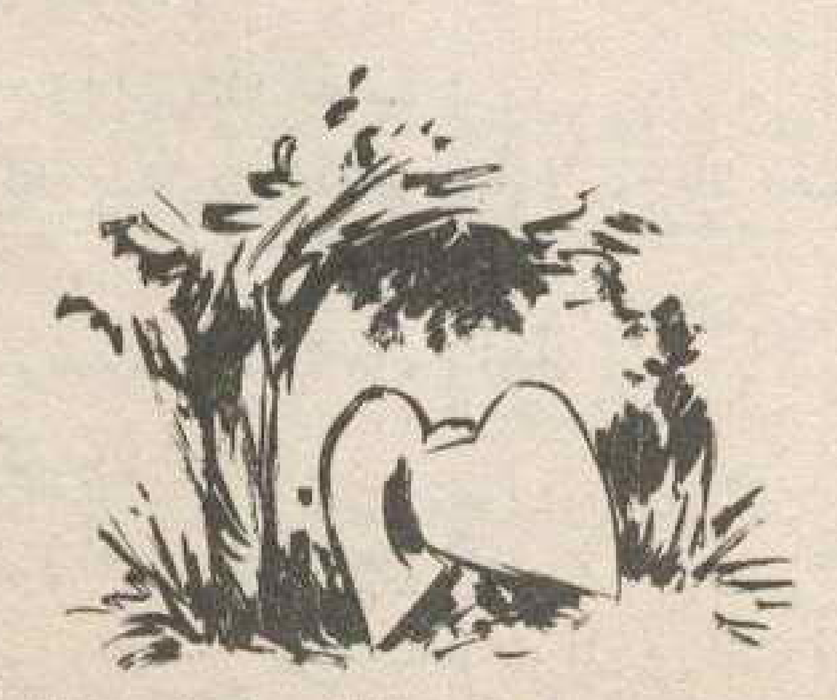
نهض ، ومدّ يده يصافحها ، وهو يقول :

– سأعود لاصطحابك .

ثم أسرع يغادر الجمعية ، قبل أن يتيح لها فرصة التراجع ، وقطع المسافة من هناك إلى السراى فى خطوات سريعة ..

وكان قلبه فى هذه المرة ينبض بشعور مختلف .. شعور اسمه الحب .

* * *



٣ ـ الزيارة ..

عقد (أحمد) حاجبيه فى صرامة ، وهتف فى سخط :

ـ دعوتها إلى هنا ؟! .. من تظن نفسك لتفعل ذلك؟

لم يكن (رأفت) يتوقع مثل رد الفعل هذا ، حينما أخبر أسرته بدعوته لـ (مشيرة) ، ولكنه ظل محتفظاً بهدوئه ، وهو يجيب أخاه :

ـ وماذا فى الأمر ؟.. أليس من حقى دعوة أحد إلى سراى أسرتى ؟

صاح (أحمد) فى غضب :

ـ كان ينبغى أن تستشيرنى أولا ، فأنا شقيقك الأكبر و ....

ارتفع صوت (سنية هانم) فجأة :

ـ كفى يا (أحمد) .

أطبق (أحمد) شفتيه على الفور ، وتلاشى سخطه أمام غضب والدته ، التى استدارت إلى (رأفت) ، وقالت فى حنان لا يخلو من الحزم :

ـ بالطبع يا ولدى يمكنك دعوة من تشاء ، على الرحب والسعة .

ابتسم (صابر) لموقف والدته ، واختلس نظرة شامتة إلى (أحمد) وقال :

ـ هذا صحيح .

عقد (أحمد) حاجبيه فى سخط ، وغمغم :

ـ كما تشاءون ، ولكننى لن أتناول طعام الغداء معها ، فأنا أكره موظفات الحكومة .

اندفع (صابر) يقول :

ـ لماذا ؟! .. إنهن ككل الفتيات ، وهن يعملن مثلنا تماماً .

مطّ (أحمد) شفتيه ، وقال فى عجرفة :

ـ وهذا ما يضايقنى فيهنّ ، فأنا أتصورهنّ رجالا ينقصهنّ الشوارب .

ثم أردف فى سخرية :

ـ أراهنكم أنها فتاة قبيحة ، لها أسنان كالأرنب ، ووجه كالفأر .

ابتسم (رأفت) دون أن يعلق على عبارة شقيقه ، وألقى نظرة على ساعته ، وقال فى هدوء :

ـ لن تلبث أن تراها ، فسأذهب لإحضارها بعد ساعتين .

ازدادت ابتسامة (أحمد) سخرية ، وقال :

ـ ومن قال إننى أرغب فى رؤيتها ؟

كانت هذه العبارة الأخيرة تشغل عقل (رأفت) كثيراً ، وهو يذهب لإحضار (مشيرة) ، فى موعد انتهاء عملها ..

كان يخشى خشونة شقيقه الأكبر ، وأسلوبه الجاف ..

كان يخشى أن يؤدى هذا إلى إيذاء مشاعر (مشيرة) ، فهو يعلم أنها رقيقة حساسة ، على الرغم من مرحها الطبيعى ..

ولكن هذه الأفكار لم تلبث طويلا ..

تلاشت كلها حينما وقعت عيناه على (مشيرة) ، وهى تنتظره أمام مبنى الجمعية باسمة الثغر ..

صافحها وهو يبتسم ، ثم سار كلاهما إلى جوار الآخر فى صمت ..

كانا يسيران فى بطء وسط الحقول ، دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، أو يلتفت أى منهما إلى الآخر ..

كان (رأفت) يشعر بسعادة عجيبة ، لمجرد أنها تسير إلى جواره ، وكم تمنى لو أنه التقط كفها فى راحته ، وبعث فيه من حنانه ، وهما يعبران الحقول الخضراء ..

طال صمته حتى فوجئ بها تسأله :

ـ أأنت دائماً صامت هكذا ؟

التفت إليها وهو يبتسم فى خجل ، وخفق قلبه لابتسامتها المرحة ، فغمغم :

ـ لا .. ليس دائماً .

عاد الصمت يلفهما بغلالته بعد هذه العبارة المقتضبة ، ثم شعر (رأفت) بسخافة موقفه ، وأن عليه أن يقول شيئاً ، فالتفت إليها يسألها فى هدوء :

ـ كيف حصلت على هذه الوظيفة ؟

انتابه الندم بعد أن نطق بسؤاله ، فقد بدا له أشد

مخافة من الصمت نفسه ، ولكن (مشيرة) أجابته فى بساطة :

– بوساطة والدى .

ليس يدرى لِمَ أحنقته بساطتها فى الرد ، فقال :

– يا له من زمن ! !

تنبه فجأة إلى أنها نفس العبارة التى يستخدمها شقيقه الأكبر ، وكاد هذا يورثه مزيداً من الحنق ، لولا أن أجابت هى :

– هذا هو ما يحدث فى كل مكان .

تأمل الخضرة الممتدة أمامه طويلا ، قبل أن يقول :

– أعتقد أن هذا صحيح ، فلو أننا نعيش منذ أربعين عاماً ، لانعكس الوضع تماماً .

توقفت ، وعقدت حاجبيها وهى تسأله :

– ماذا تعنى ؟

توقف بدوره ، واستدار يملأ عينيه بعينيها الواسعتين ، وأجاب :

– أعنى أننا لو كنا قد تخرجنا قبل الثورة ، لكانت

فرصتى أنا ، كابن لـ (رفعت باشا المندور) ، فى العثور على وظيفة مناسبة ، تفوق كثيراً فرصة ابنة مواطن عادى .

أغضبتها كلماته ، فقالت فى حنق :

– وهل كان هذا سيسعدك ؟

مطّ شفتيه ، وهزّ رأسه فى نفى ، قائلا :

– كلا .. والوضع الآن أيضاً لا يسعدنى .

ضايقها أن يدور بينهما مثل هذا الحوار ، فأشاحت بوجهها ، وواصلت سيرها وهى تقول :

– لكل عصر ظروفه :

ابتسم وهو يومئ برأسه موافقاً ، ويغمغم :

– هذا صحيح .

سارا جنباً إلى جنب ، دون أن يتبادلا كلمة أخرى ، وكلاهما يشعر بالضيق ، والحنق ..

هى كانت تشعر بالضيق ؛ لأسلوبه البارد فى معاملتها ، وهو يشعر بالضيق ؛ لأنه أفسد أول نزهة لهما معاً ..

هى تشعر بالحنق من حقيقة ما يقول ، وهو يشعر بالحنق على أسلوبه معها ..

الصمت هو الذى عاد يجمعهما ، ويسيطر عليهما مرة ثانية ..

شعر (رأفت) وهما يقتربان من السراى ، أن من واجبه أن يعتذر لها ..

ولكنه لم يستطع ..

إنه لم يقدم على الاعتذار لأحد فى حياته كلها ، وليس من طبيعته أن يفعل ..

تأرجحت انفعالاته ، ما بين الندم والحنق ، حتى وصلا إلى السراى ، فهتفت (مشيرة) فى انبهار :

ـ يا إلهى !! .. إنه أكبر مما كنت أتوقع ، وأكثر فخامة ، على الرغم من عدم الاعتناء الواضح به .

وجدها فرصة لإعادة ربط الحوار بينهما ، فقال :

ـ عجباً !! .. إننى لا أراه كذلك .

أدارت عينيها إليه ، تتأمله فى هدوء ، ثم قالت :

ـ ربما لأنك تمتلكه دائماً ، فحتى الذهب يفقد بريقه فى عينى أصحابه .

لم يشأ معارضتها هذه المرة ، خشية أن يعود إلى إفساد الموقف ، فأومأ برأسه موافقاً ، وغمغم :

ـ نعم .. هذا صحيح .

عبر كلاهما إلى حديقة السراى ، ولاحظ (رأفت) اهتمام (مشيرة) الشديد بالأشجار الواهنة ، فابتسم وهو يقول :

ـ تقول والدتى : إن هذه الحديقة كانت رائعة الجمال فيما مضى .

أشارت (مشيرة) إلى الأشجار ، وقالت فى صوت تغلب عليه رنة الأسف :

ـ يمكنها أن تعود إلى ذلك بلا شك ، فأنتم تهملون هذه الأشجار تماماً .

ثم سألته فى اهتمام :

ـ أهناك من يعنى بها ؟

أومأ برأسه إيجاباً ، وقال :

– خادم عجوز يرويها باستمرار .

مطت شفتيها فى أسف ، وقالت :

– من الواضح أنه لا يعى الكثير عن فن رعاية الحدائق ، فالرى وحده لا يكفى لإنبات فاكهة جيدة ، فلا بد من تشذيب الفروع الزائدة ، وإمداد التربة بالأسمدة اللازمة ، وقطف الثمار فى موعدها و ...

قاطعها فى هدوء :

– مهلا أيتها الزميلة ، إنها ليست زيارة عمل .

ابتسمت فى شرود ، وغمغمت :

– للأسف .

لم يفهم (رأفت) سر هذا الأسف ، ولم يجد ما يكفى من الوقت للتساؤل عنه ، فقد عبرت والدته (سنية هانم) فى هذه اللحظة باب السراى ، ووقفت فى رصانة ، باسمة الثغر ، تتطلع إلى (مشيرة) ، التى طار من ذهنها كل ما يتعلق بالأشجار ، وهى تتطلع فى انبهار إلى (سنية هانم) ، التى بدت لها فى هذه اللحظة كملكة من ملكات الأساطير ، بوجهها الجميل

الوقور ، وشعرها الأشيب الناعم ، الذى تعقصه خلف رأسها فى إناقة ، وابتسامتها الرصينة المليحة ، وتسلل صوت (سنية هانم) العميق الحنون إلى أذنى (مشيرة) كالموسيقى ، وهى تقول :

– مرحباً بك فى منزلنا يا بنيتى .

صافحتها (مشيرة) فى انبهار ، ثم عاودتها روحها المرحة ، وهى تقول :

– كلمة منزل تبدو هزيلة ، أمام هذا السراى الفخم يا سيدتى .

ارتفع حاجبا (سنية هانم) فى حنان، وهى تقول:

– أفضّل أن تخاطبينى بكلمة أمى .

اتسعت ابتسامة (مشيرة) وهى تقول :

– يسعدنى ذلك يا أماه .

قادتها الأم فى وقار إلى حجرة الصالون ، التى بدت فاخرة ، على الرغم من طرازها القديم ، وأسرعت (نبوية) تحضر أكواب الشراب ، فى لهفة لرؤية الفتاة التى ترأس الجمعية الزراعية ، فى حين جلس (رأفت)

على المقعد المواجه لـ (مشيرة) صامتاً ، يتأملها فى هدوء ، وقالت الأم ، وهى تناول (مشيرة) كوب الشراب :

– استضاءت بك قريتنا يا بنيتى ، هل أعجبتك يا ترى ؟

ابتسمت (مشيرة) فى وُدٍّ ، وأجابت :

– لم تسنح لى الفرصة لمعرفة القرية يا أماه ، فقد تسلمت عملى صباح اليوم فحسب .

ثم أسرعت تردف فى لباقة :

– ولكن وجود أسرة مثلكم ، يعنى بالتأكيد أن هذه القرية ستروق لى .

ابتسمت (سنية هانم) للباقة (مشيرة) ، وهمّت بمواصلة حديثها معها ، لولا أن اندفع (صابر) إلى حجرة الصالون ، وهو يهتف :

– هل وصلت ضيفتنا يا أماه ؟

ثم توقف لحظة ، حينما وقعت عيناه على (مشيرة) ، وهتف فى نبرة تنم عن الإعجاب والانبهار :

– يا إلهى !!.. هل اتخذت (فينوس) إلهة الجمال منزلنا مقرًّا لها ؟

ابتسمت (مشيرة) فى سعادة لعبارته الأنيقة ، فى حين قطب (رأفت) حاجبيه ، واندفع (صابر) إلى (مشيرة) ، وصافحها فى حرارة ، وهو يتابع :

– معذرة .. لقد أخطأت يا آنستى ، فجمال (فينوس) يتراجع حياءً أمام جمالك المبهر .

مرة أخرى لم تستطع (مشيرة) منع سعادتها ، من القفز إلى شفتيها ، فى ابتسامة عذبة ، وهى تقول فى خجل :

– أخشى أن تمنحنى لقب (ملكة جمال العالم) ، إذا ما واصلت حديثك لدقيقة أخرى ، يا سيدى .

تأمّل (صابر) عينيها فى انبهار ، وهتف فى حرارة:

– ألم تحصلى عليه بعد ؟.. هذا يدهشنى ، فأنت تستحقينه عن جدارة .

ابتسمت (سنية هانم) ، وهى تلمح الدماء التى تدفقت إلى وجنتى (مشيرة) ، تحت سيل العبارات

الأنيقة ، التى تنهمر من بين شفتى (صابر) ، فقالت فى حنان :

– كفى يا (صابر) .. إنك تخجل ضيفتنا . .

ضحكت (مشيرة) فى خجل ، فى حين تضاعف ضيق (رأفت) ، وهو يقارن ما بين حديثه الأحمق مع (مشيرة) ، فى طريقهما إلى السراى ، وعبارات (صابر) الجميلة ، التى أسعدت (مشيرة) ، وأحنقه أن اتخذ (صابر) المقعد المجاور لـ (مشيرة) فى بساطة ، وهو يقول :

– حسناً .. دعينا نُدِرْ مجرى الحديث .. ما الذى أتى بفاتنة مثلك ، إلى قرية صغيرة كهذه ؟

ابتسمت (مشيرة) ، وأجابت فى مرح :

– وزارة الزراعة .

شعر (رأفت) أن (مشيرة) لم تعد تشعر بوجوده ، وهى تنهمك فى حديثها مع (صابر) ، وتحقق له شعوره هذا ، عندما لم تشعر هى حتى بمغادرته حجرة الصالون ، فانتابه حنق هائل ، جعله يضرب سطح مائدة الطعام

بقبضته ، وكاد يكرر فعلته ، لولا أن فوجئ بـ (صابر) يلحق به ، ويهتف فى سعادة :

– (رأفت) .. لقد قررت .

عقد حاجبيه ، وهو يسأله فى حنق :

– قررت ماذا ؟

اتسعت ابتسامة (صابر) ، ولوّح بكفه فى حركة مسرحية ، قائلا :

– قررت أن أتزوج تلك المهندسة الزراعية (مشيرة) .

* * *



هبط هذا القول على رأس (رأفت) كالصاعقة.. هاله مجرد أن تخطر الفكرة لشقيقه ..

فى هذه اللحظة فقط حدد (رأفت) طبيعة مشاعره تجاه (مشيرة) ..

فى هذه اللحظة فقط كشف أنه يحبها ..

يحبها منذ كانا زميلين فى الكلية ..

كان يشعر بتلك الرابطة منذ البداية ، ولكنه كان يقهرها فى أعماقه ، وكأنما يأبى عليه عناده الاعتراف بالحب ..

جاهد هذه المرة كثيراً ليحتفظ بهدوئه ، وهو يقول لأخيه :

ـ تتزوجها ؟!.. كيف يمكنك اتخاذ مثل هذا القرار المصيرى ، بمثل هذه السرعة ؟

لوَّح (صابر) بكفه فى الهواء ، وقال وهو يغلق عينيه فى رومانسية :

ـ لقد سحرتنى يا (رأفت) .. سحرتنى بجمالها ورقتها .. إنها فتاة الأحلام ، التى تراود خيالى منذ زمن طويل .

كتم (رأفت) ضيقه ، واحتفظ بملامحه جامدة ، وهو يقول :

ـ ألم تخش أن يكون هناك رجل آخر فى حياتها ؟

ابتسم (صابر) فى سعادة ، وقال :

ـ لقد تفحصت كفيها ، إنها لا تضع أية دبلة فى أصابعها .

قال (رأفت) فى ضيق :

ـ ليس هذا ما أقصده ، إنما قصدت أن يكون هناك من يحتل قلبها .

تجهم وجه (صابر) ، وغمغم :

ـ يا إلهى !!.. لم يخطر هذا ببالى مطلقاً .

ثم بدا الاكتئاب على وجهه ، وهو يستطرد :

ـ إنها فتاة رائعة ، ولا شك أننى أحمل رقماً متأخراً فى قائمتها .

جاءت العبارة كضربة فى الصميم لـ (رأفت) أيضاً ، فقد انعكست إليه المخاوف نفسها ، التى أراد إلقاءها فى نفس شقيقه ..

ما أدراه أن (مشيرة) ليست غارقة فى حب رجل آخر ؟..

ما أدراه أن توقيته جاء متأخراً ؟..

كان يدير هذه المفاجأة الجديدة فى رأسه ، حينما عاد الحماس إلى (صابر) ، وهتف :

ـ ليس هذا بالأمر العسير ، سأطلب من والدتى أن تسألها .

أراد (رأفت) أن يعترض ، ولكنه كان فى قرارة نفسه يأمل أن يعلم الجواب ..

يأمل ذلك فى شدة ..

وقبل أن يوافق شقيقه على رأيه ، سمع كلاهما صوت (أحمد) يقول :

ـ فيم تتناقشان ؟

كان قد عاد توا من أرض الأسرة ، ولم يكن

قد بدّل بعد ثيابه المتسخة بتراب الحقول ، ولكن أحدهما لم يلحظ ذلك ، بل قال (صابر) فى حماس :

ـ لقد حضرت تلك الدميمة التى كنت ترفض مقابلتها ، اذهب وصافحها ، وأراهنك أنك ستخر ساجداً عند قدميها ، كما فعل (أرمان دى فال) فى قصة (غادة الكاميليا) .

حدّق (أحمد) فى وجهه بدهشة ، وغمغم :

ـ (أرمان) من ؟

لوّح (صابر) بذراعيه فى الهواء ، وقال :

ـ دعك من هذا .. إنك لن تفهم ما أعنى ، فأنت تعانى أمّيّة ثقافية .

عقد (أحمد) حاجبيه فى غضب ، وجذب شقيقه من سترته ، وهو يقول فى خشونة :

ـ أمّيّة ؟!.. هل نسيت أيها الأحمق أننى أحمل شهادة بكالوريوس التجارة و..؟

قاطعه (صابر) وهو يضحك :

ـ حسناً .. حسناً .. ادخل لتحيتها أولا ، ثم نناقش أمر الأمّية الثقافية هذا .

ترك (أحمد) سترة شقيقه فى سخط ، ونفض يديه وهو يقول :

ـ ما زلت أصرّ على أنها دميمة ، ما دامت تعمل فى الحكومة .

ابتسم (صابر) ، وقال فى مرح :

ـ سنناقش هذا الأمر أيضاً ، بعد رؤيتك لها .

تقدم (أحمد) من باب حجرة الصالون ، فغمغم (رأفت) فى هدوء :

ـ ألن تبدّل ثيابك ؟

هزّ (أحمد) رأسه نفياً فى عناد ، وقال فى صرامة :

ـ إنها فى منزلنا ، وسترانى كما أنا ، ولو ..

قال عبارته وهو يعبر باب حجرة الصالون ، ولكن بقيتها احتبست فى حلقه ، حينما وقع بصره على وجه (مشيرة) الصبوح ، وابتسامتها العذبة ، فأسرعت ملامحه كلها ترسم صورة للدهشة ، حتى أنه لم ينتبه

إلى صوت أمه ، وهى تقول فى رصانتها المعتادة :

ـ صافح الآنسة (مشيرة) يا (أحمد) .. هذا (أحمد) ابنى البكر يا بنتى .

نهضت (مشيرة) فى رشاقة ، وهى تقول :

ـ سعدت بلقائك يا سيّد (أحمد) .

انتفض (أحمد) وكأنه يستيقظ من غيبوبة عميقة ، وأسرع يصافحها ، ويشد على يدها فى قوة ، ندت لها آهة دهشة وألم ، من بين شفتيها الجميلتين ، وهو يقول:

ـ مرحباً بك فى منزلنا يا آنسة (مشيرة) .. معذرة .. لقد عدت توًّا من الحقول ، ولم أبدّل ثيابى بعد ..

ثم اعتذر فى سرعة ، وأسرع إلى حجرته ، وقد قرر ارتداء أبهى حلله ، وفى طريقه سأله (صابر) فى تخابث :

ـ ما رأيك ؟

لم يزد (أحمد) على كلمة واحدة :

ـ رائعة .

قالها فى هيام عجيب ، قبل أن يصعد فى درجات السلم قفزاً إلى حجرة نومه ..

وحول مائدة الطعام ، كانت (مشيرة) محط أنظار الجميع ..

كان (أحمد) و (صابر) يوليانها رعاية فائقة ، وكل منهما يسعى جاهداً إلى جذب انتباهها ، بابتكار كل طريف ، فى حين جلس (رأفت) يتناول طعامه فى شرود ، وهو يختلس النظر إليها بين فينة وأخرى ، دون أن يشارك فى الحديث ..

ولم يغب اهتمام الأشقاء الثلاثة عن (سنية هانم) .. لاحظته ، وابتسمت فى رصانة ..

كانت تتمنى من أعماق قلبها ، منذ رأت (مشيرة) ، أن تكون من نصيب واحد من أبنائها الثلاثة ، ولكنها تساءلت .. من ؟..

ظلّ هذا التساؤل يشغلها كثيراً ، حتى بعد انصراف (مشيرة) ، خاصةً مع ذلك الشرود الذى أصاب الأشقاء الثلاثة ، مع مغرب الشمس ..

ظل الشرود والصمت يخيمان على السراى ، حتى

أعدت (نبوية) طعام العشاء ، والتأم شمل الأسرة حول المائدة ، التى أعادت إليهم ذكرى (مشيرة) ، فتوقف (أحمد) عن طعامه بغتة ، ورفع عينيه إلى أمه ، وسألها فى اهتمام :

ـ أماه .. ألا تظنين أن الوقت قد حان لزواجى ؟

ابتسمت (سنية هانم) ، وقد فهمت ما يرمى إليه ابنها بسؤاله ، ولكنها أبت أن تصارحه بفهمها ، فأجابت فى هدوء :

ـ أدعو الله أن يهبنى طول العمر ، حتى أرى زوجاتكم جميعاً يا ولدى .

انتفخت أوداجه ، وهو يقول :

ـ أعتقد أنك سترين زوجتى قريباً يا أماه .

خفق قلب (سنية هانم) ، وهى تسأله فى حنان :

ـ هل وقع اختيارك على واحدة بالذات ياولدى؟

ابتسم ابتسامة عريضة واثقة ، وأجاب :

ـ نعم يا والدتى .. إنها (مشيرة) .. مدير الجمعية الزراعية .

لم يخف على الأم ذلك الاضطراب ، الذى شمل مائدة الطعام ، حينما صرح (أحمد) بقوله هذا ، فقد بدا (رأفت) كالمصدوم ، ونمّ وجهه لأول مرة عن انفعاله ، فى حين شحب وجه (صابر) بشدة ، واحتبس الطعام فى حلقه ، فتحوّل شحوب وجهه إلى الاحتقان ، وأخذ يسعل فى شدة ، حتى أن فتات الطعام تناثر من فمه ، فأسرع يلتقط منشفته ، ويمسح بها فمه ، وهو يهتف فى سخط :

ـ أى قول أحمق هذا ؟ من قال إنها ترضى بكتلة من العضلات مثلك ؟.. إن فتاة رقيقة مثلها تحتاج بالتأكيد إلى فنان ، يقدر جمالها وعذوبتها .

لم يبد الاهتمام على وجه (أحمد) ، بل ابتسم فى سخرية ، وقال وهو يكمل تناول طعامه :

ـ شخص مثلك مثلا ؟!

هتف (صابر) ، وهو يلقى المنشفة فى حنق :

ـ هذا ما أعنيه بالضبط ، لقد كنت قد عقدت العزم على طلب يدها و....

قاطعه (أحمد) فى سخرية :

ـ ولماذا لم تفعل ؟

لم يلحظ أحدهما ذلك الألم ، الذى ارتسم على وجه (رأفت) ، ولا الإحباط الشديد ، الذى ملأ كيانه ، ولكن قلب أمه رأى ما لم يره أخواه ..

رأت حب (مشيرة) يطل من عينيه ، فارتجف قلبها ، وتراجعت فى رعدة ...

لقد تنبهت إلى أن الثلاثة يحبونها ..

(أحمد) يحبها بمنطق الرجل القوى ، الذى اعتاد الحصول على كل ما يرغبه ، بقوته وصلابته ..

و (صابر) يعشقها فى رومانسية ، ويهيم مع حبها فى سماء الخيال ..

أما (رأفت) ، فهو كعادته يحبّ فى صمت ..

كانت تشعر دائماً بمزيد من الحنان تجاه (رأفت) بالذات ..

إنها تدرك تماماً فيض الحنان ، الذى يختفى خلف جموده وغموضه ..

ما زالت تذكر صلابته ، وتماسكه ، ليلة جنازة والده ، وبكاءه الذى تسلل خافتاً إلى مسامعها ، عبر حائط حجرتيهما المشترك ، بعد أن أغلق على نفسه باب حجرته فى الليل ..

كانت تعلم دوماً أنه أكثر صلابة من شقيقيه ، وأشد بأساً ، ولكنه لا يسعى إلى إثبات ذلك ولا يحاوله ، بل يلجأ دوماً إلى الصمت والتعقل ..

كم شعرت بالحزن فى هذه اللحظة ، وهى تقرأ كل ذلك الألم فى أعماقه ، ولكن كلهم أبناؤها ، ولن ينجح قلبها فى التفرقة بينهم ..

كانت لحظة عسيرة ، تلك التى دارت فيها كل هذه الأفكار برأسها ، قبل أن تقول فى صرامة :

– كفى يا (أحمد) ، وأنت يا (صابر) .. إنكما تناقشان أمراً لم يحن أوانه بعد .

قال (أحمد) فى حدة :

– كيف يا أماه ؟.. لقد بلغت الثلاثين من عمرى ، وهى سن مناسبة للزواج .

قالت (سنية هانم) فى حزم :

– ومن قال إنها ستقبل الزواج منك ؟

ابتسم (أحمد) فى غرور ، وقال وهو يشير إلى صدره فى غطرسة :

– أية حمقاء تلك ، التى ترفض الزواج من شاب وسيم قوى مثلى ، يعمل فى شركة محترمة بمرتب ضخم ، ويمتلك خمسة عشر فداناً من الأراضى الزراعية الجيدة ؟

فجأة انفجر (رأفت) ..

لأول مرة فى حياته فقد السيطرة على أعصابه ، وصاح فى غضب :

– أنت مغرور .

ساد الصمت التام بعد عبارة (رأفت) وحدق الجميع فى وجهه بدهشة ، فى حين انكمش هو فى مقعده ، وقد شعر بفداحة ما نطق به ، ثم انفجر (أحمد) صائحاً فى غضب :

– كيف تجرؤ ؟.. سأؤدبك على وقاحتك هذه .

صاح (صابر) فى غيظ :

– إنها ليست وقاحة .. لقد نطق (رأفت) بالحق ..

صرخت (سنية هانم) فجأة :

– كفى .

تصلبت الكلمات فى حلوقهم جميعاً ، فى حين أردفت هى فى غضب حازم :

– ما هذه المهزلة ؟.. إنها أول مرة يحدث فيها هذا فى عائلة (رفعت باشا) ، كيف تجرءون على التشاجر فى حضرتى .

غمغم (صابر) فى حنق :

– فتش عن المرأة .

أصابت كلمته كبد الحقيقة ، ولكن الأم تجاهلتها ، وهى تستطرد فى صرامة :

– سنوقف النقاش فى هذا الأمر تماماً ، حتى يحين الوقت المناسب ، أو نعود إلى القاهرة فى الصباح الباكر .

عمّ الوجوم وجوههم جميعاً ، ولم ينطق أحدهم بكلمة واحدة ..

وفى تلك الليلة رفعت (نبوية) أطباق الطعام ، دون أن تنقص كثيراً ..

* * *

٥ – عرض للزواج ..

قضت (مشيرة) ليلتها الأولى ، فى الاستراحة التابعة للجمعية الزراعية ، وهى تسترجع أحداث يومها الأول فى العمل ..

كان أثاث الاستراحة قديماً متهالكاً ، ولكن ذلك لم يشغلها كثيراً ، فقد كان ذهنها مملوءاً تماماً بأسرة (رفعت باشا) ..

استعادت أحداث الزيارة كلها ، منذ قابلت (رأفت) فى الصباح ، إلى أن أصرّت على العودة وحدها بعد الظهر ، بحجة الاعتياد على القرية ، ثم توقفت عند عبارة واحدة ، جذبت انتباهها كله .

توقفت عند قول (رأفت) إنه لو جاء تخرجهما منذ أربعين عاماً ، لانعكس الموقف تماماً ..

أعادت العبارة إلى ذهنها فخامة السراى القديم ، وجمال (سنية هانم) ووقارها ، وشعرت فى هذه اللحظة أنها تحب تلك الأسرة ..

تحب ترابطها وأناقتها وأسلوبها ..

تساءلت فى أعماقها : أهى بقايا من ذلك العهد ، الذى كان فيه والدها موظفاً صغيراً ، والتى كانت أسرتها الصغيرة تقيم فيه فى ذلك الحى الشعبى القديم ؟..

أهو ذلك الحلم ، الذى يراود البشر جميعاً فى الثراء ؟..

ظلت تلك الأفكار تملأ رأسها ، وهى فى طريقها إلى الجمعية فى الصباح التالى ، وأدهشها أن تجد سيارة الأسرة فى انتظارها أمام باب الجمعية ..

لم تدر فى البداية لماذا تصورت أنه (رأفت) ، الذى حضر لزيارتها ؟.. ربما لأنه الوحيد الذى تعرفه هى من أيام الدراسة ..

ولكنه لم يكن هو ..

كان (أحمد) هو الذى حضر لزيارتها ، وقد استباح لنفسه الجلوس خلف مكتبها فى غطرسة ، ولقد نهض يصافحها ، ويُخلى لها المكتب ، وهو يقول فى رقة تخالف مظهره القوى :

– كيف حالك يا آنسة (مشيرة) .. هل أعجبتك القرية ؟

ابتسمت ابتسامة مجاملة ، وأجابت :

– إنها مكان رائع .

تراقص شاربه الضخم فوق شفتيه ، وهو يقول :

– هذا عظيم .

ثم التفت إلى الموظفين العاملين فى الجمعية ، وقال فى صرامة :

– أريد الآنسة وحدها بعض الوقت .

تبادل الموظفان نظرة أربكت (مشيرة) ، قبل أن يغادرا الجمعية ، فقالت (مشيرة) فى حنق :

– أرجو أن يكون الأمر بالأهمية التى يوحى بها أسلوبك ، فقد أحرجتنى بمطلبك هذا .

هز كتفيه فى استهتار ، وقال :

– لست أحب التحدث فى موضوع شخصى أمام آخرين .

قالها بلهجة استعراضية ، فتراجعت بمقعدها ، وقالت فى هدوء :

– موضوع شخصى ؟!..وما شأنى أنا بموضوعاتك الشخصية ؟

ابتسم فى ثقة ، وقال :

– إنه موضوع يخصّنا معاً .

عقدت حاجبيها فى تساؤل ، فأردف فى غطرسة لا تناسب الموقف :

– إننى أعرض عليك الزواج .

اتسعت عيناها فى دهشة ، وهتفت :

– هكذا !!.

أدار رأسه فى حركة جعلته أشبه بالطاوس ، وهو يقول :

– إننى أميل إلى المواقف المباشرة .

أرْتِجَ عليها لحظة ، لم تدرفيها بم تجيبه ، ثم تنهدت وهى تحاول استعادة هدوئها ، وقالت :

– منذ متى تعرفنى يا أستاذ (أحمد) ؟

أجابها فى مرح مبالغ فيه :

– نادينى (أحمد) ، فأنا لا أميل للألقاب .

عادت تتنهّد وهى تقول :

– حسناً .. منذ متى تعرفنى يا (أحمد) ؟

أجاب فى بساطة :

– منذ أمس فقط .

ثم أسرع يستطرد :

– ولكننى أشعر وكأننى أعرفك منذ أعوام

قالت فى لهجة دبلوماسية :

– هذا يسعدنى ، ولكن الزواج يحتاج إلى معرفة أكثر .

لوّح بكفه فى أسلوب استعراضى ، وقال :

– الخطاب يتضح من عنوانه .

لم تدر (مشيرة) ماذا تفعل ؟...

كانت تحاول رفض طلبه بأسلوب مهذب ، دون أن تسىء إلى مشاعره ، ولكنه كان عاجزاً عن استيعاب ذلك ..

وكان الموقف بأكمله يدهشها ..

بدا لها (أحمد) شبيهاً بصورة (رفعت باشا) التى

تزين حجرة الصالون فى السراى ، وإن شعرت بما تأتى لها من معلومات عن (رفعت باشا) ، أن الوالد وابنه البكر يتفقان فى الملامح فقط ، ويختلفان فى كل ما عدا ذلك ، فقد كان الباشا – رحمه الله – رقيقاً عطوفاً متفهماً ، حسبما سمعت من أهل القرية ، أما (أحمد) فهو يبدو خشناً جافاً ، شديد الاعتداد بنفسه ، إلى درجة الغرور ..

لم تدر كيف توصّل إليه رأيها ، فعادت تسأله بعد فترة من الصمت :

– لماذا تريد الزواج منى يا (أحمد) ؟

تطلّع إليها فى دهشة ، وغمغم فى حيرة :

– كل الرجال والنساء يتزوجون .

حاولت أن تبتسم ، وهى تعاود سؤاله :

– أعنى لماذا اخترتنى أنا بالذات ؟

ابتسم فى اعتداد ، وهو يتصورها محاولة للتقرب منه ، وأجاب :

– لقد أعجبتنى .

مالت نحوه ، وهى تسأله فى اهتمام :

– لماذا ؟.. ما الذى أعجبك فىّ ؟

ظهرت الحيرة فى ملامحه وهلة ، ثم عاد يبتسم قائلاً :

– جمالك .

غمغمت :

– فقط ؟!

ازدادت دهشته ، وهو يقول :

– ألا يكفى هذا ؟

اعتدلت ، وقالت وهى تبتسم :

– أعتقد ذلك ، بالنسبة لك على الأقل .

لم يلمح رنة السخرية فى صوتها ، فابتسم فى تفاخر ، وقال وهو يعاود التلويح بكفه :

– والآن .. هل توافقين ؟

أجابته ، وهى تهزّ كتفيها :

– ألا تعتقد أن الوقت يحتاج إلى مهلة للتفكير ؟

أسعدته إجابتها ، دون مبرّر واضح ، فمال نحوها ، وهمس فى تخابث :

– أهو حياء العذارى ؟

كانت عبارته فجّة ، خالية من الذوق واللياقة تماماً ، إلا أنها أجابته فى هدوء :

– رُبّما .

نهض فى اعتداد ، وهو يقول فى لهجة شبه آمرة :

– حسناً .. سأنتظر الجواب يوم السبت القادم على الأكثر .

ابتسمت وهى تقول :

– بإذن الله .

لم يكد يغادر الجمعية فى سيارة الأسرة الفاخرة ، حتى زفرت هى فى ارتياح ، وهزّت رأسها ، وكأنها تنفض عنها دهشتها ، ثم لم تلبث دهشتها أن تحولت إلى خجل شديد ، حينما رأت تلك النظرات المتسائلة فى عينى موظفيها ، اللذين عادا إلى مكتبهما المشترك ، وهما يتساءلان عن سرّ هذا الحوار السرّى ..

شعرت بالحنق على (أحمد) ، الذى أورثها كل هذا الحرج ، فى يومها الثانى بالعمل ، ولكنها تشاغلت

بمراجعة عدد من الدفاتر القديمة ، وكأنها تحاول الفرار من نظرات أهل القرية ، وموظفيها ، ثم لم تلبث أن نسيت الأمر ، وانهمكت فى تفحص الأوراق فعلاً ..

كان انهماكها قد وصل إلى ذروته ، عندما فوجئت بيد تمتد أمام ناظريها ، حاملةً زهرة حمراء قانية ، فرفعت عينيها إلى صاحب اليد ، لتقعا على وجه (صابر) ، الذى ابتسم ابتسامة عريضة ملأت وجهه كله ، وهو يقول :

– صباح الخير يا أجمل زهرة فى قريتنا الصغيرة .

مرة أخرى أورثها أحد أفراد عائلة (رفعت باشا) حرجاً شديداً ، فقد ابتسم الموظفان ، وتبادلا نظرة خبيثة ، مما جعلها تندفع لتقول فى عصبية :

– ماذا هناك ؟

اتسعت عينا (صابر) فى دهشة ، وغمغم :

– أقول صباح الخير فحسب .

أجابته فى عصبية زائدة :

– صباح الخير .. هل من خدمة يمكننى تقديمها يا أستاذ (صابر) ؟

جلس – دون دعوة منها – فوق المقعد المجاور لها، وعاد يمد يده إليها بالزهرة الحمراء ، قائلا :

– اقبلى منى هذه .

سألته فى توتر ، دون أن تمد يدها إلى الزهرة :

– لماذا ؟

ازداد حرجها ، حينما بدأ الموظفان يتهامسان فى خبث ، فى حين لم يلحظ هو ذلك ، فمال نحوها ، وهو يقول فى رقة :

– عجباً !!.. كيف حصلت على بكالوريوس الزراعة ، دون أن تتعلمى لغة الزهور ؟

غمغمت فى حنق:

– لغة الزهور ؟!

أومأ برأسه ، وقال فى لهجة حالمة :

– نعم .. لكل زهرة لغة ، ومعنى ؛ فالزهرة الصفراء تشير إلى الغيرة ، والبيضاء إلى الطهارة والنقاء..

وامتلأ صوته برنة رومانسية ، وهو يردف فى همس :

– والحمراء إلى الحب .

تملكها الغضب ، فمالت نحوه ، وقالت بلهجة جادة ، وفى صوت مرتفع تعمدت أن يسمعه الآخران:

– أرجو ألا تضيع وقت العمل يا أستاذ (صابر) ، وأخبرنى مباشرة ماذا تريد ؟

أدهشها أن تضرّج وجهه بحمرة الخجل ، وهو يقول :

– هذا يحتاج إلى وجودنا وحدنا .

انتقل خجله إليها ، وهمت برفض مطلبه ، لولا أن نهض الموظفان ، وقال أحدهما فى خبث :

– حسناً ، سنترككما وحدكما يا أستاذ (صابر) .

وقبل أن تعترض كانا قد غادرا الجمعية ، وأغلقا الباب خلفهما ، فالتفتت هى إلى (صابر) ، وقالت فى عصبية :

– حسناً .. ماذا تريد ؟..

أجابها فى هيام :

– أن تقبلينى زوجاً .

تراجعت فى دهشة ، وهى تهتف :

– ماذا ؟

فوجئت به يلتقط كفها الرقيقة ، ويضغطه بين راحتيه فى حنان ، وهو يقول فى هيام :

– (مشيرة) .. لقد أحببتك منذ أول لحظة ، وقعت فيها عيناى عليك ، ولم يعد لى أمل فى الدنيا سوى أن أتزوّجك ، وأعدك أن أبذل كل جهدى لجعلك أسعد زوجة فى العالم .. سنرشف معاً رحيق الحب ، ونشمّ عطر السعادة و ..

جذَبتْ كفها من بين راحتيه ، وهتفت :

– ماذا تقول ؟

بحثت يده عن كفها فى إصرار ، وهو يقول فى عشق :

– إننى مستعد للزواج فى أية لحظة ، ولن تندمى أبداً ، وسأجعل حياتك كلها سيمفونية عشق خالدة و..

شعرت بالذعر لما تسمعه ، ولكن عقلها صاح بها أن تلجأ للحكمة ، فاستجمعت أعصابها ، وابتسمت فى وجهه ، وقالت :

– حسناً .. اتركنى أفكر فى الأمر .

اتسعت ابتسامته ، وكأنما كانت عبارتها تحمل الموافقة ، وتهللت أساريره وهو ينهض قائلا :

– سأنتظر رأيك بفارغ الصبر يا (مشيرة) .

ثم أردف فى حنان :

– يا حبيبتى .

ظلّت على دهشتها ، وهو يغادر المكان ، ولم تنتبه إلا عندما عاد الموظفان ، وهما يحدجانها بنظرة خبيثة ساخرة ، فعقدت حاجبيها ، وهى تقول فى عصبية :

– عودا إلى عملكما ، لقد أضعنا الكثير من الوقت هذا الصباح .

عاد الموظفان إلى مكتبهما ، دون أن تفارق الابتسامة شفتيهما ، وعادت هى تحاول عبثاً العودة إلى أوراقها ، ولكن عصبيتها المفرطة منعتها ، فزفرت فى ضيق ، ولم تكد تفعل حتى تسلل إلى أذنيها صوت هادىء ، يقول :

- صباح الخير يا آنسة (مشيرة).

رفعت عينيها إلى مصدر الصوت بحركة حادة ثم تراخت أطرافها فوق المقعد ..

كان الابن الثالث لأسرة (رفعت باشا) ..

كان (رأفت المندور) ..

* * *



٦ - همسة حب ..

« ماذا هناك ؟!.. أهو عرض آخر للزواج ؟ »

نطقت (مشيرة) بهذه العبارة فى حدّة ، وبصوت مرتفع ، ثم لم تلبث أن شعرت بندم هائل ، يحتل كيانها ، ويتسلل عبر دمها، إلى كل خلية فى جسدها ..

لقد أفصحت فى غمرة غضبها عن سر اللقاءين السرّيين لها ، مع (أحمد) و (صابر) ، وهالها أثر ذلك التصريح على وجه (رأفت) ، ووجهى الموظفين ..

لقد ظهرت الدهشة لحظة على وجهى الموظفين ، ثم لم تلبث ابتسامة عريضة أن وجدت طريقها إلى شفاههما ، وتبادلا نظرة عجيبة ، قبل أن يعود كل منهما للتظاهر بالتشاغل فى عمله ..

أما (رأفت) فقد بدا وجهه فى عينيها صورة مجسمة للألم ..

لقد ضاقت عيناه ، وارتجفت شفتاه ، وارتعدت ملامح وجهه لحظة واحدة ..

لحظة فجّرت كل هذا الندم فى أعماق (مشيرة) ..

لحظة نقلت إليها كل آلامه ، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة حزينة ، حاول أن يخفى بها وقع الصدمة عليه ، وهو يغمغم :

ــ لقد كنت مارًّا من هنا ، وأردت إلقاء التحية عليك فحسب .

دفعها ندمها إلى النهوض من مقعدها ، والمبالغة فى الترحيب به ، ودعوته إلى الجلوس ، فلبى دعوتها فى بساطة ، وظل صامتاً ، وهو يفكر فى معنى عبارتها ..

كانت تعنى ببساطة أن أحد أخويه ، أو كليهما ، قد عرض عليها الزواج هذا الصباح ، ولقد آلمه هذا كثيراً ..

لم يكن قد حضر ليقدم لها عرضاً مماثلا ، ولكنه ومنذ استيقاظه هذا الصباح ، وهو يشعر برغبة كبيرة لرؤيتها ، وبعد أن قاوم هذه الرغبة طويلا ، وجد نفسه يستسلم لها ، فيرتدى ملابسه ، ويذهب إليها ..

كان كل ما يتمناه هو رؤيتها فحسب ، ولكنها صدمته فى اللحظة نفسها ، التى ملأ فيها عينيه بجمالها وجاذبيتها ..

كان يتعذب ، ولكنه لم يشأ أن يجلس صامتاً ..

أبى عليه عناده أن يعترف بعذابه ، ولو بصمته ، وبحث عقله المعذب عن كلمة ينطق بها ، فلم يذكر سوى تعليق (مشيرة) عن الأشجار المتهالكة فى حديقة السراى ، فقال :

ــ جئت لرؤيتك من أجل أشجار حديقة السراى .

مالت نحوه ، وهى تسأله فى اهتمام :

ــ ماذا عنها ؟

قال فى شرود :

ــ هل يمكنها أن تزدهر مرة ثانية ؟

شعرت بغريزتها الأنثوية أن هذا ليس هو السبب الرئيسى لحضوره ، ولكنها ابتسمت وأجابت فى هدوء :

ــ من العجيب أن توجه أنت لى هذا السؤال ، فكلانا خريج دفعة واحدة ، ولقد كان ترتيبك يتقدم عنى كثيراً .

شعر بالحرج لعبارتها ، فأرتج عليه ، ولم يعد يجد

جواباً مناسباً، ولكنها أعفته من الحرج، حينما استطردت فى مودة :

– ولكن لو أنك تطلب معاونتى ، فأنا تحت أمرك .

ساد الصمت بينهما لحظة ، ثم اندفعت (مشيرة) تراجع كل ما تعلمته ، عن طرق رعاية الحدائق ، واشترك معها هو فى الحديث ، وقد بدا عليهما أن أشجار الحديقة هى كل ما يشغلهما فى الحياة ..

ولكن واقع الأمر كان يختلف ..

لقد شعرت (مشيرة) بانجذاب عجيب تجاه أسلوبه الهادئ المهذب ..

شعرت أنها تتحدث مع أكثر أبناء (رفعت باشا) نضجاً ، وأحسنهم خلقاً ..

وكان الحديث عن الأشجار يمتعها ..

يمتعها لأنه يخلق بينهما اهتماماً مشتركاً لأول مرة ..

وكان عقلها يرغب فى هذا الاهتمام ..

(رأفت) أيضاً تعلق بمشكلة أشجار السراى ،

كوسيلة للحديث مع (مشيرة) ، وجذب انتباهها ، وفى أعماقه نمت جذور اهتمام عميق بمشكلة الأشجار ، فقد أصبحت فى نظره الوسيلة الوحيدة للاقتراب من (مشيرة) وإمتاع قلبه بلقائها ..

دام الحديث بينهما طويلا ، حتى نسيت (مشيرة) تماماً ما أصابها من ضيق وندم ، وبدأت السعادة تتسلل إلى قلبها ..

ومع كل دقيقة تمر ، كان انجذابها لشخصية (رأفت) يتضاعف ، حتى أنها شعرت بالأسف ، حينما توقف الحديث بينهما ، وابتسم (رأفت) ، قائلا فى هدوء :

– حسناً يا (مشيرة) .. متى نبدأ ؟..

أكثر ما أسعدها فى عبارته ، هو أنه نطق اسمها مجرداً ، وفى بساطة جميلة ، فابتسمت فى سعادة ، وقالت :

– من الغد لو أردت يا (رأفت) .

هى أيضاً نطقت باسمه مجرداً ، وهو أيضاً شعر بالسعادة لذلك ..

ونهض .. ونهضت .. وتصافحا ..

لم تكن مجرد مصافحة عادية ..

كانت فيضاً من الحب ، حطم كل الحواجز بينهما ، فتحولا إلى نهر واحد ، يسيل فى عذوبة ورقة ..

وقالت عيناهما ما لم تنطقه ألسنتهما ..

اندمجت عيناه بعينيها ، وهما يتصافحان ، وارتجفت أصابعهما قبل أن تنفصل ، ويتبادلان نظرة عميقة ..

ثم انصرف (رأفت) ..

انصرف وترك قلب (مشيرة) يخفق فى قوة ..

هو أيضاً كان قلبه يخفق ..

قطع الطريق من الجمعية إلى السراى ، فى خطوات سريعة واسعة ، أقرب إلى العدو ..

كان يتمنى فى الواقع لو أنه قطعه عدواً ، ولكن طبيعته الرصينة منعته ، وإن لم تمنعه من الابتسام طوال الوقت فى سعادة ، فاليوم فقط اعترفت عيناه بحبه ..

— أما (مشيرة) فقد أنهت عملها ، وعادت إلى استراحتها ، وتناولت القليل من طعام الغداء ، الذى أعدته لها خادمة

الاستراحة ، ثم استلقت على فراشها ، دون أن تبدل ملابسها ، وأخذت تستعيد أحداث اليوم الثانى من عملها ..

استعادت عرضَى الزواج ، اللذين تلقتهما من (أحمد) و (صابر) ، ولقاءها مع (رأفت) ..

كانت تعلم أنه مما يبعث السعادة والزهو ، فى نفس أية فتاة ، أن تتلقى عرضين للزواج فى يوم واحد ، ولكنها لم تشعر بذلك ..

صحيح أنها كانت تشعر بالسعادة والزهو ، ولكن عرضَى الزواج لم يكونا السبب ..

كانت سعادتها تعود إلى كشفها شعور (رأفت) نحوها ، بعد أن عرفته خمس سنوات ، وزهوها يرجع إلى اختياره لها ، من دون فتيات العالم أجمع ..

راودها شعور السعادة والزهو طويلا ، ثم لم يلبثا أن تراجعا ، وتركا مكانهما للأسف ..

أسفت لأنه الوحيد من بين أشقائه ، الذى لم يطلب منها الزواج ..

شعرت أنه لو فعل لما ترددت فى القبول ..

ثم تذكّرت تلك العبارة القاسية التى جابهته بها ، حينما جاء إليها ، وعاد الندم يتسلل إلى قلبها ..

ترى هل منعته تلك العبارة من الإفصاح بمكنون قلبه ؟..

ترى هل حطمت الكلمات على شفتيه ، قبل أن ينطق بها ؟ ..

دفعها شعورها إلى استعادة تفاصيل حديث كل من الأشقاء الثلاثة إليها ..

لقد طلب منها (أحمد) الزواج فى عجرفة، وعرضه عليها (صابر) فى رومانسية ، ولكن (رأفت) وحده، ودون أن يطلب منها الزواج ، أو يشبع أحاسيسها بالمديح المنمق ، قد منحها أكثر مما منحها شقيقاه ..

لقد منحها همسة ظلت تسمعها حتى الآن ..

همسة حب ..

* * *

٧ ـ التفكك ..

ظل (رأفت) واضح الشرود طيلة ذلك المساء ..

كان يفكر فى حديثه مع (مشيرة) فى الصباح ، وشغله هذا التفكير ، حتى سمع أمه تسأله فى حنان :

ـ ماذا يشغلك يا (رأفت) ؟

رفع عينيه إليها فى شرود ، ثم ابتسم فى هدوء ، وقال :

ـ إننى أفكر فى أشجار حديقتنا ، التى شارفت على الذبول يا أماه .

رفعت الأم حاجبيها فى دهشة ، وقالت :

ـ ولماذا تذكّرتها الآن ؟ .. إن عمّ (محمود) يرويها يوميًّا .

كرّر دون أن يدرى عبارة (مشيرة) :

ـ الرى وحده لا يكفى يا أماه ، هناك وسائل رعاية أخرى .

أطلق (أحمد) ضحكة ساخرة ، وقال :

ـ ومن سيمنحها هذه الرعاية ، ما دمنا لا نأتى إلى هنا إلا فى الإجازات ؟

فى حين شرد (صابر) ببصره فى هيام ، وغمغم :

ـ نعم .. إن الحديقة ستبدو غاية فى الروعة ، لو ازدهرت الأشجار مرة أخرى .

تردّد (رأفت) لحظة ، ثم قال فى صوت خافت :

ـ لقد اتفقت مع (مشيرة) و ..

قاطعته صيحة غاضبة ، انطلقت كالقنبلة من بين شفتى (أحمد) :

ـ (مشيرة) ؟!.. ومن سمح لك بعرض هذا الأمر عليها ؟

حافظ (رأفت) على هدوئه ، وهو يقول فى ضيق :

ـ هل نسيت أننا خرجنا دفعة واحدة ؟

قفز (أحمد) من مكانه ، وجذب أخاه فى خشونة ، وهو يصيح فى غضب :

ـ اسمع يا (رأفت) .. (مشيرة) منذ هذه اللحظة

تعد بمثابة خطيبتى ، ولن أسمح لك حتى بالحديث معها ، دون موافقتى .

هتف (صابر) فى غضب :

ـ خطيبتك ؟!.. من وضع هذه الفكرة الحمقاء فى رأسك ؟

صاح (أحمد) :

ـ لقد طلبتها اليوم للزواج .

هتف (صابر) :

ـ وأنا أيضاً فعلت ، وأراهنك أنها لم تصرّح لك بالموافقة .

صرخ (أحمد) وهو يرفع قبضته فى وجه (صابر) :

ـ أيها الحقير .. كيف تجرؤ ؟..

صاحت (سنية هانم) فى غضب :

ـ كفى .. هل نسيتم وجودى ؟

صاح (أحمد) ، وهو يلوّح بقبضته فى غضب :

ـ لقد نسى هذا السخيف أننى شقيقه الأكبر ، وأننى أولى منه بالزواج .

صاح (صابر) بدوره :

– هل تظن أننا جنديان فى الجيش ، حيث تفوق الأقدمية كل شيء .

هتفت (سنية هانم) :

– ما بالكما ؟.. هل جننتما ؟

التفت (أحمد) إلى والدته ، وقال فى عصبية :

– احسمى أنت الأمر يا أماه .. من منا أحق بالزواج منها ؟

قبل أن تجيب الأم ، قال (رأفت) فى ضيق :

– ومن قال إنها تقبل الزواج من أيكما ؟

استدار إليه (أحمد) فى غضب ، وقال :

– وماذا يعنيك أنت ؟

ثم تألقت عيناه ، وهو يردف فى غضب :

– مهلاً .. يبدو أنك أيضاً غارق فى حبها .

وارتفع صوته وهو يستطرد :

– نعم .. أنت تحبها .. اعترف .

أشاح (رأفت) بوجهه ، دون أن ينبس بحرف

واحد ، فى حين أطلق (أحمد) ضحكة ساخرة ، وهو يتابع فى قسوة :

– هل تفكر أنت أيضاً فى الزواج منها يا آخر العنقود ؟.. ألم تنتبه إلى أنك ما زلت تجلس فى المنزل دون عمل ؟

آلمت هذه العبارة (رأفت) إيلاماً شديداً ، فقد أصابت فى أعماقه جرحاً عميقاً ..

إنه حقًّا لم يعمل بعد، و(مشيرة) تعمل فى منصب ذى رنين ..

كاد يبكى ، لولا صلابته وعناده ..

كاد يبكى ألماً وقهراً ، لولا أن شعرت والدته – كعادتها – بدموعه الحبيسة ، فهتفت فى صرامة :

– اجذب عنان لسانك يا (أحمد) قبل أن تتمادى فى الإساءة لشقيقك ، وتذكّر أنه يمتلك ثلث الأرض تقريباً ، ويكفيه إيرادها للإنفاق على بيت الزوجية .

عاد (أحمد) يضحك مرة ثانية فى قسوة ساخرة ، ويقول :

– وهل سيجلس فى منزله ، منتظراً عودة زوجته من عملها ؟

فاض الكيل بـ (رأفت) عند هذه النقطة، فصاح :

– كفى يا (أحمد) .. كفى .

عادت عينا (أحمد) تتألقان فى قسوة ، وهويقول :

– هيَّا .. ثُرْ مرة فى حياتك كلها ، لقد تساءلت طيلة عمرى ، عما إذا كنت تمتلك أعصاباً مثلنا ؟!

اتسعت عينا (سنية هانم) فى ذعر ، وهى تشاهد ذلك الشجار ، الذى ينشب لأول مرة بين أولادها ..

إنها تعلم منذ البداية أنهم يختلفون تماماً فى أهوائهم ومشاربهم ، ولكن هذا لم يؤدّ أبداً إلى صراعهم منذ مولدهم ..

انتابها الفزع ، وهى تتصور أنها تشهد لأول مرة تفكك عائلة (رفعت باشا) .. تلك العائلة التى كانت أعظم ما أورثها (رفعت) ، ودفعها فزعها إلى الصراخ :

– توقفوا عن هذه السخافات .

كانت أول مرة فى حياتها تفقد فيها أعصابها أمام

أولادها ، فساد الصمت بينهم تماماً ، ممزوجاً بالدهشة والأسف ، فى حين واصلت هى فى غضب حازم :

– لن يتم تبادل كلمة واحدة زائدة عن هذا الموضوع ، أو أغادر هذا السراى ، ولا أطأه بقدمى بعد الآن .

أطرق الثلاثة برءوسهم فى ندم ، واستطردت هى فى صرامة :

– ستأتى (مشيرة) لتعالج أشجار الحديقة ، كما اتفق معها ، وسنتركها جميعاً تختار من يروق لها زوجاً، كما يفعل المتحضّرون ، أو حتى ترفضكم جميعاً ، فهذا شأنها ، وإلى أن تحين لحظة الاختيار هذه ، لن يتحدث أى منا فى الأمر .. مفهوم ؟

نطقت كلمتها الأخيرة فى صرامة شديدة ، ثم انتزعت نفسها من مقعدها فى حدّة، واتجهت فى خطوات غاضبة إلى حجرة الصالون، وتركتهم صامتين نادمين..

فى حجرة الصالون تفجرت فى أعماقها عاصفة من المخاوف والقلق ..

رفعت عينيها إلى صورة (رفعت باشا) ، التى تملأ الجدار المواجه لها ، وهى تستعيد ذكرياتها معه ، ومن عينيها انحدرت دمعة صامتة ، ووجدت نفسها تغمغم فى صوت أشدّ خفوتاً ، من أن يسمعه أحد غيرها :

– ماذا أصاب أبناءك يا (رفعت) ؟ .. إنهم يتقاتلون من أجل فتاة .

خيّل إليها أنها تسمعه يجيبها ، قائلا :

– لا عليك يا عزيزتى .. هكذا الرجال دوماً .

صنع عقلها الحزين حواراً وهميًّا مع زوجها الراحل ، وهى تغمغم :

– ولكنك لم تكن كذلك .

– بالعكس . . هل نسيت كيف قاتلت لأفوز بك ؟

– إنك على الأقل لم تقاتل أخويك .

– لو أنهما أراداك كما كنت أريدك لفعلت .

– ولكن هذا سيؤدى إلى تفكك الأسرة .

– عليك أن تحاولى منع ذلك .

– كيف ؟

– بالحكمة يا (سنية) .. كما كنت تفعلين دائماً .

– لقد تقدّمت بى السن .

– حكمة الإنسان تزداد مع تقدّمه فى العمر .

– ولكن شعرى الأشيب يقول : إن صحتى لم تعد تحتمل .

– خطأ .. الشعر الأبيض تاج الرزانة والتعقل .

– هل تظن أننى أستطيع ؟

– بلا شك .. ولكن حذار أن تتدخلى بشكل يفسد الأمور .

– ماذا أفعل إذن ؟

– الأحداث وحدها ستخلق الوسيلة .

– هل أنتظر إذن ؟

– نعم .. حتى تحين اللحظة المناسبة .

– ومتى تحين ؟

– الله – سبحانه وتعالى – وحده يعلم .

توقف الحوار الوهمى عند هذه النقطة ، وتنهدت (سنية هانم) ، وهى تضع يدها على قلبها ، مغمغمة :

– نعم .. الله – سبحانه وتعالى – وحده يعلم ، ماذا ستفعل بنا (مشيرة) هذه .

* * *

٨ ــ عيناك ..

مرّ اليوم الثالث من أيام العمل فى حياة (مشيرة) بطيئاً رتيباً ، فقد كانت تنتظر مقدم (رأفت) لاصطحابها بفارغ الصبر ..

كانت تشعر أن فكرة العناية بالأشجار ستتيح لهما فرصة لم تتح لهما من قبل ، لمعرفة كل منهما الآخر ..

تذكّرت كيف كان (رأفت) يجذب انتباهها فى الكلية ، وكيف حاولت أن تسبر أغواره أكثر من مرة ، دون أن تفلح فى ذلك ..

كان يبدو لها دائماً غامضاً كسرّ مغلق ، وإن خيّل إليها أنها تلمح فى عينيه دوماً حناناً دافقاً ..

كان الفضول يدفعها كثيراً للبحث عنه فى أروقة الكلية ، فى محاولة لمعرفة سرّ غموضه وصمته ، على الرغم من إعجابها الدائم بتهذيبه ، وحسن معاملته ..

واليوم كشفت سرّ اهتمامها الحقيقى به ..

لقد كانت تحبه ..

انتظرت فى لهفة ، حتى حان موعد الانصراف ، دون أن تبالى بالزهرة التى وجدتها على مكتبها هذا الصباح أيضاً ، والتى لم تكن تحتاج إلى توقيع ، لتعلم أنها هدية (صابر) الثانية ..

غادرت مبنى الجمعية الزراعية ، ووقفت أمامه تتطلع إلى الطريق فى لهفة ، واختلج قلبها فى قوة ، عندما رأت (رأفت) يقترب وسط الحقول ، بخطواته المتمهلة ، وابتسامته التى قلما تفارق شفتيه ..

اقترب منها فى هدوء ، واتسعت ابتسامته حتى شملتها كلها ، ومدّ يده يصافحها ، وتركت كفها فى راحته طويلا ، وهما يتبادلان حديثاً صامتاً بعيونهما ، ثم ارتفعت حمرة الخجل لتغمر وجهها كله ،وهى تغمغم:

ــ هيّا بنا ..

سارا متجاورين وسط الحقول ، وكل منهما يبطئ فى سيره ، وكأنهما يخشيان أن تنتهى نزهتهما ، ولكنهما سارا صامتين ، حتى شعرت (مشيرة) برغبة شديدة فى الحديث معه ، فقالت وهى تتأمل جانب وجهه :

– هل تعلم أنك تختلف كثيراً عن شقيقيك ؟

ابتسم فى هدوء ، وقال :

– نعم .. أعتقد ذلك .

كاد يكتفى بهذا القول ، لولا أن راودته الرغبة نفسها ، فى تبادل الحديث معها ، فاستطرد :

– هما أيضاً يختلفان فيما بينهما ، فـ (أحمد) يميل إلى استخدام القوة ، فى كل ما يواجهه من مشاكل ، وهو مقتنع تماماً بأن القوة هى الأسلوب الوحيد لحل الأمور ، فى حين يتمتع (صابر) بطبيعة رومانسية ، تجعله يميل دائماً إلى التفاؤل ، والنظر إلى الأمور بنظرة حالمة ، أعتقد أنها لا تتفق مع واقع الأمور .

سألته فى اهتمام :

– وأنت ؟!

ابتسم وهو يقول :

– أنا ماذا ؟

قالت فى لهفة :

– ما هى طبيعتك ؟

صمت لحظة ، وهو يبتسم ابتسامة شاردة ، ثم أجاب فى هدوء :

– من الصعب أن ينتقد الإنسان نفسه .

أرادت أن تستثيره ، ليشبع فضولها ، فقالت :

– لستَ إذاً تمتلك الشجاعة الكافية .

ظلت ابتسامته هادئة ، وهو يقول :

– ليس للشجاعة دخل فى الأمر يا (مشيرة) ، وإنما قال أحد الفلاسفة الأقدمين : إنه لكل إنسان ثلاث صور : صورته كما يرى نفسه ، وصورته كما يراه الآخرون ، وصورته الحقيقية التى هى مزيج من الاثنين ، وهذا يعنى أن الإنسان لا يستطيع تقييم نفسه .

قالت فى مرح :

– ويعنى أيضاً أن الآخرين يعجزون عن ذلك .

أومأ برأسه موافقاً ، وقال :

– رُبَّما .

عاد الصمت يرافقهما بعض الوقت ، ثم قالت (مشيرة) :

ــ ما رأيك فىّ انا إذن ؟

التفت إليها ، وأشبع عينيه بجمالها ورقتهـا ، ثم ابتسم وهو يقول فى هدوء :

ــ هل تحتاجين حقـًا إلى معرفته ؟

تضرّج وجهها بحمرة الخجل ، وخفضت عينيهـا فى حياء ، وهى تغمغم :

ــ كلاً .

كانت هذه آخر كلمة يتبادلانها ، حتى وصلا إلى حديقة السراى ، ولكن مسيرتهما اكتسبت لوناً جديداً ..

لوناً ورديًّا هادئاً ، يفوح برائحة الحب ..

وعندما وصلا إلى السراى ، كانت حديقته خالية إلا منهما ، فأشار (رأفت) إلى الأشجار ، وقال :

ــ أما زال حماسك سارياً أمام هذا المشهد ؟

هتفت :

ــ بالطبع .

ثم اقتربت من إحدى الأشجار تفحصها فى عناية ، وقالت :

ــ من حسن حظ هذه الأشجار ، أنها كانت تجد من يرويها يوميًّا ، وإلا قضت نحبها منذ زمن طويل .

ابتسم (رأفت) وهو يقول :

ــ إنها تنتظر الشفاء على يديك .

ضحكت (مشيرة) ، وقالت وهى تشير إلى شجرة ضخمة ، تتوسط الحديقة :

ــ هذه الشجرة هناك تبدو أكثرها ضخامة .

ضحك (رأفت) وهو يقول :

ــ هذا صحيح ، ونحن نطلق عليها اسم (أم الأشجار) .

سارا فى هدوء إلى قاعدة (أم الأشجار) ، وربّتت عليها (مشيرة) ، وهى تقول مداعبة :

ــ إنها تستحق اللقب عن جدارة .

ثم هتفت فى مرح :

ــ انظر يا (رأفت) .. لقد تحدّت إهمالكم لهـا .

رفع (رأفت) عينيه إلى حيث أشارت ، فرأى زهرة بيضاء صغيرة ، تنبت فى جذع الشجرة ، فابتسم وقال :

ـ الحياة تنشأ دائماً ، دون الحاجة إلى رعاية البشر يا (مشيرة) .

خفضت عينيها إليه ، وخفض عينيه إليها ..

والتقت عيناهما فى منتصف الطريق ..

وتحدثتا ..

تحدثت العيون بحديث هامس ، لا يسمعه إلا العشاق ..

ارتجفت (مشيرة) ، وارتجف (رأفت) ..

تعلقت عيناها بعينيه ، وتعانقتا ..

رأت (مشيرة) فى عينيه نهراً يفيض بالحب ..

خيل إليها أن عينيه تحتويانها ..

تعانقها ..

تضمانها ..

تحيطانها بحنان دافق ..

تخاطبها بحب غامر ..

تدفقت مشاعرها ، وازداد اختلاج قلبها ..

وجدت نفسها تهمس ، وهى تذوب فى عمق عينيه :

ـ (رأفت) .. عيناك .

مسّت أنامله شفتيها ، وكأنما يطلب منها الصمت .. وكأنما يرجوها ألا تفسد تلك اللحظة بالكلمات ..

كان الصمت هو أبلغ ما يقال فى مثل هذا الموقف ..

طال الصمت وعينا كل منهما لا تفارق عينى الآخر ، ثم قال (رأفت) فى صوت هامس ، حنون ، هادئ ، عميق :

ـ (مشيرة) ..

أجابته فى همس مماثل :

ـ نعم ..

قال :

ـ لست أملك قوة (أحمد) ، ولا وسامته ، ولست أجيد استغلال القوة ، فى كسب معاركى ، كما أعجز دائماً عن النطق بعبارات أنيقة منمقة جذابة كـ (صابر) ، ولكننى .. ولكننى ..

كرّر الكلمة مرات ، وكأنه عاجز عن إتمام عبارته ، ولكن (مشيرة) فهمت ..

قرأت فى عينيه ما عجزت عنه شفتاه ..

ورقص قلبها فرحاً ..

كم تمنّت فى هذه اللحظة لو أنه نطق بالكلمة التى تتمنى سماعها من بين شفتيه ؟..

كلمة (أحبك) ..

ولكنه لم ينطقها ..

قالتها عيناه ، وعجزت عنها شفتاه ..

واكتفت (مشيرة) بحديث عينيه ..

وفى توافق عجيب ، امتد كفّ كل منهما نحو الآخر فى هدوء ..

وتلاقت أصابعهما ، وتشابكت ..

وأعلنت الأصابع المتعانقة بدء قصة حبهما ..

وانطلقت فى قلب كل منهما صرخة سعادة وفرح ، اختلطت بصرخة أخرى ملتاعة ..

كانت صرخة (أحمد) ..

صرخة جريح ..

* * *

٩ ـ الصراع ..

تفرّقت أصابع (رأفت) و (مشيرة) فى فزع ، واستدار إلى مصدر تلك الصرخة الملتاعة ، التى انتزعتهما من عالم الحب ، ورأيا (أحمد) واقفاً على بعد خطوات ، يحدّق فيهما بشراسة ، ثم لم يلبث أن صاح فى غضب:

ـ أيها الحقير .

ثم اندفع نحو (رأفت) ، الذى قال فى حدة :

ـ مهلاً يا (أحمد) .. إننا ..

توقفت العبارة فى حلقه ، وصرخت (مشيرة) فى مزيج من الفزع والألم ، حينما لكَمَ (أحمد) أخاه لكمة قوية ، جعلت (رأفت) يرتطم بجذع (أم الأشجار) ، وقد سال خيط من الدم من طرف شفتيه ، ولكنه لم يفقد اتزانه ، وهو ينهض ، ويواجه أخاه ، قائلا فى صرامة :

ـ الحب بالذات لا يؤخذ بالقوة يا (أحمد) .

جاء جواب (أحمد) على هيئة لكمة أخرى أصابت

عين (رأفت) ، ودفعته ثانيةً ، ليرتطم بالشجرة ، فصرخت (مشيرة) فى ذعر :

– كفى .. كفى بالله عليك .

لم يبد على (أحمد) أنه سمعها ، وهو يجذب (رأفت) من قميصه ، ويرفع قبضته ، استعداداً لمنحه لكمة أخرى ، لولا أن انطلقت فى الحديقة صرخة أخرى ..

صرخة (سنية هانم) ، التى هالها ما ترى ، ومزّقها ما تسمع ..

أعادت صرختها إلى (أحمد) صوابه ، فتوقفت قبضته فى منتصف المسافة، إلى أنف (رأفت)، وارتعدت لحظة ، قبل أن يخفضها إلى جواره، ويدفع (رأفت) فى غضب ، ثم يلقى نظرة تفيض بالكراهية على (مشيرة) ، ويندفع متجاوزاً أمه، إلى داخل السراى ..

وقفت (سنية هانم) واجمة ، ذاهلة ، ملتاعة ، تحدّق فى (رأفت) ، الذى اندفعت نحوه (مشيرة) ، تعاونه على النهوض ، وهندمة ثيابه ، وهتفت (سنية هانم) :

– ألا يشرح لى أحدكم ما يحدث هنا ؟

مسح (رأفت) خيط الدم ، من جانب فمه ، وهو يتطلع إلى أمه فى هدوء، فى حين تخضّب وجه (مشيرة) بحمرة الخجل ، وغمغمت فى ارتباك :

– أعتقد أنه من الأفضل أن نؤجل أمر هذه الأشجار ، حتى تهدأ الأمور .

قالت عبارتها ، واندفعت تغادر الحديقة ، على نحو زاد من دهشة الأم ، التى هتفت :

– ماذا حدث بالله عليك يا (رأفت) ؟

أطرق برأسه فى هدوء ، وغمغم :

– لست أدرى يا أماه .

ثم عاد يرفع عينيه إليها ، مردفاً :

– أعتقد أن (أحمد) وحده يملك الجواب .

وفى هدوء ابتعد عنها إلى داخل السراى ..

وقفت (سنية هانم) لحظة فى حيرة ، ثم عقدت حاجبيها فى غضب ، وغمغمت :

– لن تستمر الأمور على هذا النحو .. أبداً .

ثم زفرت فى قوة ، وكأنها تحاول استعادة اتزانها ، واستدارت فى وقار ، واتجهت من فورها إلى حجرة (أحمد) ، فى الطابق الثانى من السراى ..

كان (أحمد) يجلس فى حجرته ، وهو يرتب أدواته الرياضية فى عصبية .. ولم يكن وحده ..

كان معه (صابر) ، الذى بدا كالمصدوم ، وهو يجلس على طرف فراش (أحمد) ، شاحب الوجه ، زائغ النظرات ..

أدار كلاهما عينيه إلى (سنية هانم) ، حينما دخلت الحجرة ، وكانت عينا (أحمد) تشعّان غضباً، فى حين كانت عينا (صابر) مغرورقتين بدموع الألم والحزن، فقالت الأم ، وقلبها يتمزق مما أصاب أبناءها :

— حسناً .. ماذا حدث ؟

ضغط (أحمد) على أسنانه فى غضب ، دون أن يجيب ، على حين قال (صابر) فى حزن :

— إنها تحبه .

كان هذا الجواب يكفى ، ليشرح للأم كل

ما حدث ، ولكنها عادت تسأل فى اضطراب :

— من تحب من ؟

خفض (صابر) عينيه ، وهو يقول فى لهجة أقرب إلى البكاء :

— (مشيرة) تحب (رأفت) .

غصّ حلق الأم ، مع تلك اللهجة الحزينة ، التى يتحدث بها (صابر) ، ومع كل ذلك الغضب المرتسم فى ملامح (أحمد) ، ولكنها حاولت أن تبتسم ، وأن تبدو هادئة ، وهى تقول فى صوت خرج من بين شفتيها — على الرغم منها — مختنقاً ، متحشرجاً :

— هذا يحسم الأمور إذن .. لقد اختارت هى من يناسبها منكم .

كانت تحاول تهدئة الموقف ، إلا أن عبارتها فجّرت مزيداً من الغضب فى نفس (أحمد) ، فقال فى قسوة :

— إنه لن يتزوجها .

وغمغم (صابر) ، وهو يبكى بكاءً حارًا :

– إننى أكره .. أكرههما معاً .

ارتجف قلب الأم فى ألم ، وبدا صوتها مفعماً بالحزن ، وهى تقول :

– الأمر لا ينبغى أن يصل إلى هذا الحد .

ثم بذلت جهداً لتعيد إلى صوتها رصانته وحزمه، وهى تردف :

– أنتم إخوة ، وينبغى لكم أن تترابطوا ، و تتكاتفوا فى مواجهة الأمور ، والزواج من المسائل الشخصية البحتة ، وللمرأة – كما للرجل – حق اختيار من يشاركها هذه المرحلة من حياتها ، وإذا كانت (مشيرة) قد اختارت (رأفت) ، فهذا يعنى أنه الوحيد الذى يمكنها أن تقبله زوجاً ، ومنع هذا الزواج لن يجعلها من نصيب أحدكما ، فمن الأفضل إذن أن تساندا شقيقكما ، وتتمنيا له النجاح والتوفيق فى حياته الزوجية .

ابتسم (أحمد) ابتسامة ساخرة ، مفعمة بالمرارة ، فى حين غمغم (صابر) ، ودموعه تزداد غزارة :

– لن أستطيع يا أماه .. ربما فيما بعد .

وفجأة قال (أحمد) :

– أنا أستطيع .

ثم اندفع متجاوزاً أمه ، وأسرع إلى حجرة (رأفت) ، ودق بابها فى قوة ، فلحقت به الأم وهى تهتف فى قلق :

– (أحمد) .. إننى أحذرك .. لو أنك تشاجرت معه ثانية فسأ ...

بترت عبارتها ، حينما فتح (رأفت) باب حجرته ، ووقف على عتبته صامتاً ، متورم العين ، يتطلع إلى أمه وشقيقه فى هدوء وثبات ..

مرت لحظة من الصمت ، قبل أن يمد (أحمد) يده إلى (رأفت) ، ويقول فى نبرات قوية :

– مبروك .

تردّد (رأفت) لحظة ، ثم مدّ يده إلى شقيقه ، وتصافح الأخوان فى قوة ....

ولكن قلب (سنية هانم) لم يهدأ ..

كان يشعر أن الأمر لم ينته بعد ..

* * *

١٠ ـ الجريمة ..

ذهبت (مشيرة) إلى عملها ، فى اليوم الرابع ، وهى تحمل فى أعماقها مشاعر متناقضة ، متضاربة ..

كانت تشعر بالسعادة ؛ لأن الحب ربط قلبها أخيراً ، بالرجل الذى تحبه ..

وكانت تشعر بالحزن ؛ لأن حبهما قد ولد هذا الصراع فى الأسرة ..

تشعر بالأمن لأنها أحبت ، وبالخوف لما يتهدد حبها.

لم تنتبه فى البداية إلى الزهرة، التى استقرت فوق مكتبها ، ثم لاحظتها بعد دقائق من جلوسها خلف المكتب ، فعقدت حاجبيها ، وهى تلتقطها فى ضيق ..

كان من الواضح أن (صابر) هو مرسلها،ولكنها لم تكن زهرة حمراء كالعادة ..

كانت زهرة صفراء صغيرة ..

كانت اعترافاً بغيرة صاحبها ، وحنقه ....

تذكرت حديث (صابر) عن لغة الزهور، فأبعدت الزهرة فى ضيق ، وعادت تحاول التشاغل فى عملها ..

لم تكد تنهمك فى عملها ، حتى سمعت صوتاً هادئاً، يقول :

ـ الآنسة (مشيرة) ، حسبما أعتقد.

كان الصوت غير مألوف لأذنيها ، فرفعت رأسها فى بطء ..

وقعت عيناها ـ أول ما وقعتا ـ على حلة رسمية، يرتديها رجال الشرطة ، فواصلت صعود عينيها ، حتى انتهيتا إلى وجه هادئ ، لضابط شرطة ، يحمل رتبة نقيب ..

أدهشتها رؤية الضابط ، إلا أنها احتفظت بدهشتها فى أعماقها ، وابتسمت فى هدوء ظاهرى، وهى تقول:

ـ هل من خدمة يمكننى تقديمها ؟

بدا التردّد على وجه الضابط لحظة ، وهو يتأمل ملامحها الرقيقة الوديعة ، ثم خفض عينيه ، وهو يقول:

ـ معذرة ، ولكننى حضرت للتحقيق معك ، فى تهمة رشوة .

توقف الموظفان عن عملهما بغتة ، واشتركا مع

(مشيرة) فى تلك النظرة الذاهلة ، التى استقرت فوق وجه الضابط ، قبل أن تهتف (مشيرة) فى صوت مختنق :

– رشوة ؟!.. ماذا تعنى ؟

أجاب الضابط :

– لقد اتهمك أحد أصحاب الأراضى هنا ، بطلبك رشوة ، مقابل منحه مزيداً من الأسمدة والكيماويات .

هتفت فى ألم :

– أنا ؟!.. واجهنى به إذن، وسأثبت لك أنه كاذب.

غمغم الضابط :

– هذا ما سيحدث بالفعل يا سيدتى ، ولكنك ستصحبيننا أولا إلى نقطة الشرطة .

شعرت (مشيرة) ببرودة تسرى فى أطرافها ، وبغصّة فى حلقها ، ولكنها استطاعت أن تقول :

– من هذا الذى اتهمنى ؟

فتح الضابط فمه ، وهمّ بالنطق ، لولا أن ارتفع فى هذه اللحظة صوت هادئ يقول :

– ماذا يحدث هنا ؟

ترقرقت الدموع فى عينى (مشيرة) ، وهى ترى (رأفت) فى هذه اللحظة بالذات ، وهتفت كطفل يتشبث بحماية والده :

– (رأفت) .. إنهم يتهموننى بالرشوة .

هتف (رأفت) فى استنكار :

– الرشوة ؟!.. من هذا الحقير الذى جرؤ على..؟

قاطعه الضابط فى هدوء :

– إنه شقيقك يا سيد (رأفت) .

شعر (رأفت) بهذا القول يخترق قلبه ، كخنجر سام ، وتراجعت (مشيرة) فى مقعدها بذهول ، ثم هتف (رأفت) :

– شقيق ؟!.. أيّهما ؟

أجابه الضابط فى هدوء :

– (أحمد رفعت المندور) .

– أنت ؟!

صرخ (رأفت) بهذه الكلمة فى وجه شقيقه

بغضب ، ولكن (أحمد) ابتسم فى سخرية ، وقال :

ـ لقد طلبت منى رشوة بالفعل ، وكان ينبغى أن تلقى جزاءها .

صاح (رأفت) فى غضب ، وهو يجذب قميص شقيقه فى عنف :

ـ أنت كاذب .

ابتسم (أحمد) فى سخرية ، وقال وهو يزيح قبضة شقيقه عن قميصه :

ـ هل ستضربنى ؟

كاد (رأفت) يصرخ فى وجهه مرة ثانية ، لولا أن هتفت (سنية هانم) :

ـ ماذا حدث ؟.. أريد أن أفهم .

صاح (رأفت) :

ـ هذا الحقير اتهم (مشيرة) بطلب رشوة منه ، ليمنعنى من الزواج منها .

شحب وجه (سنية هانم)، وهى تنظر إلى (أحمد) فى ألم ، وتقول:

ـ أهذا صحيح يا (أحمد) ؟

أجاب (أحمد) فى هدوء :

ـ لقد طلبت منى رشوة حقًّا يا أماه .

ثم ارتفع صوته ، وهو يردف :

ـ وكان ينبغى له أن يشكرنى على كشف أمرها ، بدلا من أن يتهمنى بتلفيق التهمة لها ، وأنا شقيقه الأكبر .

صاح (رأفت) فى غضب :

ـ أنت كاذب .

هزّ (أحمد) كتفيه فى استهتار ، وقال:

ـ ربما ، ولكن لدى شاهد ، لا يمكنك التشكيك فى أقواله .

هتف (رأفت) :

ـ من هذا الحقير الآخر؟

عقد (أحمد) ساعديه أمام صدره ،وقال فى حزم:

ـ (صابر) .

ازداد شحوب وجه الأم ، وارتجف قلبها ألماً ، فى حين اتسعت عينا (رأفت) فى ذهول ، وغمغم :

ـ هذا مستحيل .
ثم عاد يقبض على صدر قميص (أحمد) ، ويهتف :
ـ أنت كاذب فى هذا أيضاً .
صاح (أحمد) :
ـ ما بالك تلقى الاتهامات جزافاً هكذا ؟.. اسأل (صابر) نفسه .
ثم رفع صوته ينادى شقيقه ، الذى بدا على باب حجرة الصالون صامتاً ..
لم تكد (سنية هانم) تلمح ابنها (صابر) حتى غاص قلبها بين قدميها ..
كان ممتقع الوجه ، دامع العينين ، وكان يقرض أظفاره بأسنانه ، تماماً كما كان يفعل وهو صغير ، حينما كانت أمه تضبطه متلبساً بخطأ ما ..
عرفت (سنية هانم) على الفور أنه غارق فى هذه الجريمة مع شقيقه ، فأغلقت عينيها ، وغمغمت فى صوت شديد الخفوت :
ـ رحماك يا إلهى !!

أما (أحمد) ، فقد عقد حاجبيه ، وسأل أخاه فى صرامة :
ـ أصحيح ما أقول يا (صابر) ؟
خفض (صابر) عينيه ، وغمغم :
ـ نعم .. إنه صحيح .
شحب وجه (رأفت) ، وترنح جسده لحظة ، ثم تهاوى فوق مقعده ، وهو يدفن وجهه بين راحتيه ، ولكنه لم يلبث أن رفع عينيه إليهما فى صرامة وصلابة ، وقال :
ـ أنتما كاذبان .
كان من العسير على نفس (سنية هانم) ، أن تشارك فى مثل هذه الجريمة ، ولكن الشىء الوحيد الذى كان يملأ عقلها فى هذه اللحظة ، هو أن تمنع ذلك الشرخ ، الذى بدأ يستشرى بين أبنائها ، فصاحت فى وجه (رأفت) :
ـ (رأفت) .. إنك تتهم شقيقك من أجلها .
استدار إليها (رأفت) فى حدة ، وصاح :

ـ إنهما كاذبان يا أماه .
قالت فى صرامة :
ـ لا يحق لك اتهامهما ، ولو أنك نطقت بكلمة أخرى ...
لأول مرة فى حياته ، تجاهل (رأفت) أوامر أمه ، وأعلن عن صلابته وقوته ، وهو يلتفت إلى شقيقه الأكبر ، قائلا فى لهجة قوية ، مخيفة :
ـ اسمع يا (أحمد) .. قد تكون أكثر قوة منى ، ولكننى لا أهابك ، وأنا أعلم أنك كاذب ، وأنك أقنعت (صابر) ، أو أجبرته بوسيلة ما ، على مشاركتك هذه الحقارة ، ولكننى لن أغفر لكما هذا ، وسأقف إلى جوار (مشيرة) حتى النهاية ، ولو أنها خسرت هذه المعركة ، فأنا أقسم أنكما ستندمان .. أقسم بروح أبى .
وقبل أن ينطق أحدهما بكلمة واحدة ، اندفع إلى خارج السراى ، وانطلق فى خطوات سريعة إلى نقطة الشرطة .. إلى جوار حبيبته ..
ساد الصمت تماماً بعد انصرافه ..

صمت ثقيل كئيب ..
ثم قال (أحمد) فى ارتباك :
ـ إنه مخطئ و ....
توجه بعبارته هذه إلى أمه ، ولكن نظراتها الصارمة جعلته يبتلع باقى العبارة ، ويشعر بمرارتها فى حلقه ، وآلمه أن أبعدت أمه نظراتها عنه ، وواجهت (صابر) قائلة :
ـ الحق بى إلى حجرتى يا (صابر) .
واستدارت تصعد فى درجات السلم فى وقار ، يخفى عذاب قلبها ، ولحق بها (صابر) فى خطوات متخاذلة ، بعد أن حدجه (أحمد) بنظرة صارمة ، وكأنه يحذّره من التراجع فى قوله ..
وقف (صابر) أمام أمه فى حجرتها مطرق الرأس ، وجلست هى أمامه صامتة ، تبحث عن أجوبة أسئلتها فى وجهه ، ثم قالت فى حزم :
ـ كيف فعلت ذلك ؟
تلعثم ، وهو يغمغم :

ـ لقد طلبت رشوة بالفعل يا أماه .

صاحت (سنية هانم) فى غضب :

ـ واخسارتاه .. لقد أسفرت تربيتى لكم عن هباء.

غمغم (صابر) فى انكسار :

ـ أماه .

صاحت به :

ـ اصمت .. لقد حطمت آمالى فيك ..

ثم نهضت تواجهه ، وتقول فى صرامة :

ـ أنت المهذّب الرقيق ، تشارك فى مثل هذا العمل الحقير !! .. أنت تعلم أن (أحمد) قد لفّق لها التهمة ، لأنه يكره أن يخسر معاركه ، ولكن طبيعتك أنت تختلف ، فكيف توافقه على أسلوبه ؟

لم يحتمل (صابر) كثيراً ..

انهار فجأة ، وأجهش بالبكاء ، وهو يقول فى صوت منتحب :

ـ لقد رفضت حبى يا أماه .

صاحت به الأم :

ـ هذا حقها .. أتتشدّق فقط بحقوق المرأة ، ثم ترفض أبسط حقوقها ، حينما يتعلق الأمر برغباتك الشخصية ؟

ازداد نحيب (صابر) ، فى حين واصلت أمه :

ـ لقد خذلتنى .

هتف ، وهو يتعلق بها :

ـ كلاً يا أماه .. لن أشارك فى هذا العمل .. سأذهب وأعترف .

صاحت به :

ـ فات الوقت .. اعترافك الآن يزيد الأمر سوءاً ، ويدمغك بجريمة البلاغ الكاذب ، والسبّ العلنى .

ثم عقدت حاجبيها ، واستطردت :

ـ لابدّ أن نبحث عن حل .. لابدّ .

* * *

١١ – الاعتراف ..

تحرّك (رأفت) فى توتر أمام حجرة وكيل النيابة، فى نقطة الشرطة ..

كان يعلم أن (مشيرة) تواجه موقفاً عسيراً ، وتهمة كاذبة ، ولكنه لا يعلم كيف يعاونها على الفكاك منها ..

كان يشعر لأول مرة بالحنق على أسرته ، وعلى شقيقه (أحمد) بالذات ..

فكر لحظة فى أن يدلى بشهادة كاذبة ، تبرئ (مشيرة) ، وتلقى الاتهام على شقيقه ..

ثم تراجع ..

كان من العسير عليه أن يضحى بأحدهما ، فالأولى حبيبته ، والثانى شقيقه ..

وأورثه هذا مزيداً من الغضب والحنق ..

وتوقفت أفكاره فجأة ، حينما وقع بصره على أمه (سنية هانم)، وهى تقترب بخطواتها الرصينة الوقور ، وخلفها (أحمد) واضح الحنق ، و (صابر) الذى أطرق برأسه فى خجل ..

كاد يشيح بوجهه عنهم ، ولكن والدته بادرته ، قائلة :

– سينتهى هذا الموقف السخيف الآن يا (رأفت) .

سألها فى لهفة :

– هل سيعترف (أحمد) بتلفيق التهمة لها ؟

قال (أحمد) فى عصبية :

– إنها ليست تهمة ملفقة ، ولكن والدتى أقنعتنى بالعدول عنها و ...

قاطعته (سنية هانم) ، وهى تقول :

– سندعى أن (أحمد) قد أساء فهم الحديث ، وسأدلى أنا بشهادة تبرئها ، دون أن يتورّط شقيقاك .

هتف (رأفت) فى أمل :

– لا يعنينى كيف يتم الأمر ، المهم أن تتجاوز (مشيرة) هذه الأزمة ..

قالت (سنية هانم) فى حزم :

– اطمئن يا ولدى .. سيحدث هذا .. أعدك بذلك .

وبرّت بوعدها ..

بحثت بذكائها فى إنهاء الأزمة دون أن يضار أحد ..
هكذا خيّل لها ..

ولكن الضرر كان قد نشأ بالفعل ..

لقد ترك الموقف جرحاً لا يندمل ، فى أعماق الأشقاء الثلاثة ..

صحيح أن (مشيرة) قد برّئت ، ولكن (رأفت) لم يغفر لشقيقيه أبداً فعلتهما ..

كلما حاول أن يغفر ، عاودته ذكرى ذلك الألم ، الذى كان يملأ وجه (مشيرة) ، بعد خروجها من حجرة وكيل النيابة ..

ما زال يذكر كيف كانت تبكى ،وكيف رفضت أن يوصلها إلى الاستراحة ..

وكانت الذكرى تزيد من نقمته على أخويه ..

بدا توتر الموقف واضحاً ، من ذلك الوجوم الذى سيطر على الأسرة ، حول مائدة الطعام فى تلك الليلة ..

تعجبت الخادمة (نبوية) ، من أن أحدهم لم يمس طعامه ، على الرغم من جلوسهم طويلا حول المائدة ..

(صابر) كان يشعر بالندم يعتصر قلبه ، ويتمنى لو استعاد احترام (رأفت) ،ولكنه كان يخشى مواجهته..

(أحمد) لم تكن نفسه قد هدأت بعد ، وإن قرّر أن يهادن الموقف فى الوقت الحاضر ، فهو لم يعتد خسارة معاركه ..

(سنية هانم) وحدها، كانت تشعر بكل ما يدور فى أعماقهم ، وكانت تشعر بحزنهم كله فى قلبها ..

كانت تشعر أن الشرخ الذى أصاب أسرتها قد تفاقم ، ولابدّ لها من اللحاق به ، قبل أن يستشرى ، ويمزق أوصال الأسرة ..

حاول عقلها أن يبحث عن حلٍّ للمشكلة ، وتمنت لحظتها لو أن (رفعت باشا) على قيد الحياة ، ليواجه أصعب أزمة تمر بحياة أسرته ..

ظنت أخيراً أنها عثرت على الحل ، فقالت وهى تصبغ صوتها بالحزم والصرامة :

ـ سنعود فى صباح الغد إلى القاهرة ، فكفانا ما حدث فى هذه الإجازة .

مطّ (أحمد) شفتيه ، وقال :
ـ نعم .. أعتقد أن هذا أفضل .
وأطرق (صابر) برأسه ، وهو يغمغم :
ـ كما تشائين يا أماه .
أما (رأفت) ، فقد قال في صرامة :
ـ لن أغادر السراى .
هتفت (سنية هانم) في غضب :
ـ (رأفت) .. كيف تجرؤ ..؟
قاطعها في حدة :
ـ لست طفلاً يتحكم الآخرون في مصيره .. إننى أحب (مشيرة) ، وهى تحبنى ، ولقد قررت الزواج منها ، وسأبقى هنا ، حتى يتم ذلك .
ظهر الغضب على وجه (أحمد) ، وقال في حدّة :
ـ هل تعارض أوامر أمك ؟
هتف (رأفت) :
ـ إننى أعارض كل شيء يقف في طريق حبى لـ (مشيرة) .

ثم نهض في حدّة ، واندفع إلى حجرته ، وساد الصمت حول مائدة الطعام لحظة ، ثم نهض (صابر) بدوره ، وقال في تلعثم :
ـ أنا أيضاً أحتاج إلى بعض الراحة .
ولحق به (أحمد) ، وهو يقول :
ـ هذا ما أشعر به أيضاً .
جلست الأم وحدها على مائدة الطعام ، وقد أطل الحزن والألم من عينيها ، فاقتربت منها (نبوية) ، وقالت في إشفاق :
ـ إنها أزمة عابرة يا سيدتى ، لن تلبث أن تزول .
التفتت إليها (سنية هانم) لحظة ، ثم سألتها :
ـ هل تعرفين أين تقيم (مشيرة) يا (نبوية) ؟
أجابتها (نبوية) في دهشة :
ـ نعم يا سيدتى .. لِمَ ؟
ساد الصمت لحظة ، ثم أجابت (سنية هانم) :
ـ سنذهب لزيارتها .
تفجّرت الدهشة في وجه (نبوية) ، وهى تقول :

ـ متى ؟

أجابتها (سنية هانم) فى هدوء .

ـ الآن يا (نبوية) .

هتفت (نبوية) فى دهشة عارمة :

ـ الآن ؟ !

لم تكن دهشة (مشيرة) بأقل من دهشة (نبوية) ، حينما فتحت باب الاستراحة ، ووجدت أمامها (سنية هانم) ..

مرّت فترة من الصمت ، وهى تحدّق فى وجهها ، قبل أن تقول (سنية هانم) فى هدوء :

ـ مساء الخير يا بنيتى .. كيف حالك ؟

انتبهت (مشيرة) من دهشتها ، وقالت :

ـ حمداً لله .. تفضلى يا سيدتى .

عبرت (سنية هانم) فى وقار باب الاستراحة ، وألقت نظرة على الأثاث المتهالك ، ثم قالت فى رصانة :

ـ هل تشعرين بالراحة هنا يا بنيتى ؟

أجابتها (مشيرة) فى تحفّظ :

ـ نعم .

ابتسمت (سنية هانم) ابتسامة رصينة ، وقالت :

ـ ألا تظنين أنه يمكنك الحصول على وظيفة أفضل فى مكان آخر ؟

عقدت (مشيرة) حاجبيها ، وسألتها فى حيرة :

ـ ماذا تقصدين ؟

التفتت (سنية هانم) إلى (نبوية) ، وقالت :

ـ اتركينا وحدنا يا (نبوية) .

نقلت (نبوية) بصرها بينهما لحظة ، ثم غادرت الاستراحة ، وأغلقت الباب خلفها ..

تبادلت (سنية هانم) و(مشيرة) نظرة طويلة ، قبل أن تقول الأولى فى حنان :

ـ اجلسى يا بنيتى .. هناك ما أريد أن أحدثك به .

جلست (مشيرة) ، وهى تتساءل عن سر هذه الزيارة ، ولم تتركها (سنية هانم) لحيرتها طويلا ، بل بادرتها قائلة :

ـ أنت تعلمين بالطبع ما أصاب أسرتى بسببك .

هتفت (مشيرة) فى استنكار :

– بسببى أنا ؟

رفعت (سنية هانم) يدها أمام وجهها ، وهى تقول فى رفق:

– مهلا يا بنيتى .. استمعى إلىّ أولا .

وفى هدوء ورصانة ، أخذت تشرح لها ما أصاب الأسرة من تفكك ، بعد ارتباطها بـ (رأفت) ، وصراعه مع أخويه ، واستمعت إليها (مشيرة) فى صمت ، حتى انتهت ، فسألتها:

– وماذا يمكننى أن أفعل ؟

ظهر الحزن فى عينى (سنية هانم) ، وأجابت :

– أن تبتعدى عنهم جميعاً يا بنتى .

غمغمت (مشيرة) فى ألم :

– ولكنك تعرفين أن (رأفت) يحبنى .

سألتها (سنية هانم) فى حنان :

– وأنت ؟!

أطرقت (مشيرة) برأسها ، وقالت فى خجل:

– أنا أيضاً أحبه .

شعرت (سنية هانم) بحنان يغمر قلبها ، وبرغبة شديدة فى أن تحتضن (مشيرة) ،وتضمها إلى صدرها، وتبارك حبها لابنها ، ولكن رغبتها فى إنقاذ أسرتها تغلبت على حنانها ، فقالت :

– وهل يبلغ حبك له الحد الكافى لأن تضحى من أجله ؟

عقدت (مشيرة) حاجبيها فى حيرة ، وهى تغمغم:

– ماذا تعنين يا سيدتى ؟

قالت (سنية هانم) فى حزم :

– زواجك من (رأفت) سيمزّق علاقته بأخويه، وسيحكم عليه بالألم والعذاب طيلة عمره .

ترقرقت الدموع فى عينى (مشيرة) ، وهى تقول:

– ولكنهما المخطئين لا نحن .

ربّتت (سنية هانم) على يد (مشيرة) وقالت :

– هذا لن يمنع حدوث التمزق يا بنتى .

نهضت (مشيرة) ، وهى تقول فى عصبية :

ـ ولماذا ندفع أنا و (رأفت) الثمن ؟

لم تجد (سنية هانم) جواباً ، فغمغمت فى ضراعة :

ـ أنا أرجوك يا بنيتى .

أطرقت (مشيرة) برأسها ، وساد الصمت طويلا ، حتى سألتها (سنية هانم) :

ـ ماذا قرّرت ؟

رفعت (مشيرة) رأسها إلى (سنية هانم) ، وقالت فى صلابة :

ـ هل قرأت قصة (غادة الكاميليا) يا سيدتى ؟

تطلعت إليها (سنية هانم) فى دهشة ، وهى تسألها :

ـ كلا يا بنيتى .. لماذا ؟

ابتسمت (مشيرة) ابتسامة شاحبة ، وقالت :

ـ لقد قرأتها أنا ، ولم تقنعنى نهايتها أبداً .

ظلت (سنية هانم) تتطلع إليها فى حيرة ، فأردفت فى هدوء :

ـ لقد تلقت (مارجريت جوتييه) بطلة هذه القصة عرضاً مماثلا ، للتضحية من أجل حبيبها (أرمان دى فال)

ولقد قبلت هى العرض ، وتخلت عنه من أجله ، وإن اختلف الغرض عن واقعنا هذا ، ولكن النهاية لم تسعد أحدهما .

سألتها (سنية هانم) فى قلق :

ـ ماذا تعنين ؟

لوّحت (مشيرة) بكفها ، وقالت :

ـ هذه التضحية فرقت الحبيبين فحسب ، ولكن أحدهما لم ينعم بالسعادة قط .. لقد ظل (أرمان) حزيناً حتى آخر أيامه ، وقضت (مارجريت) نحبها حزناً على فراقه .

غمغمت (سنية هانم) :

ـ (أرمان) ؟!.. (مارجريت) ؟!.. إننى لاأفهم شيئاً يابنيتى .. هل ترفضين عرضى .

أجابتها (مشيرة) ، وهى تعقد حاجبيها فى حزن :

ـ ليس تماماً يا سيدتى .

انتعش الأمل فى قلب(سنية هانم) ، وهى تسألها :

ـ ماذا إذن ؟

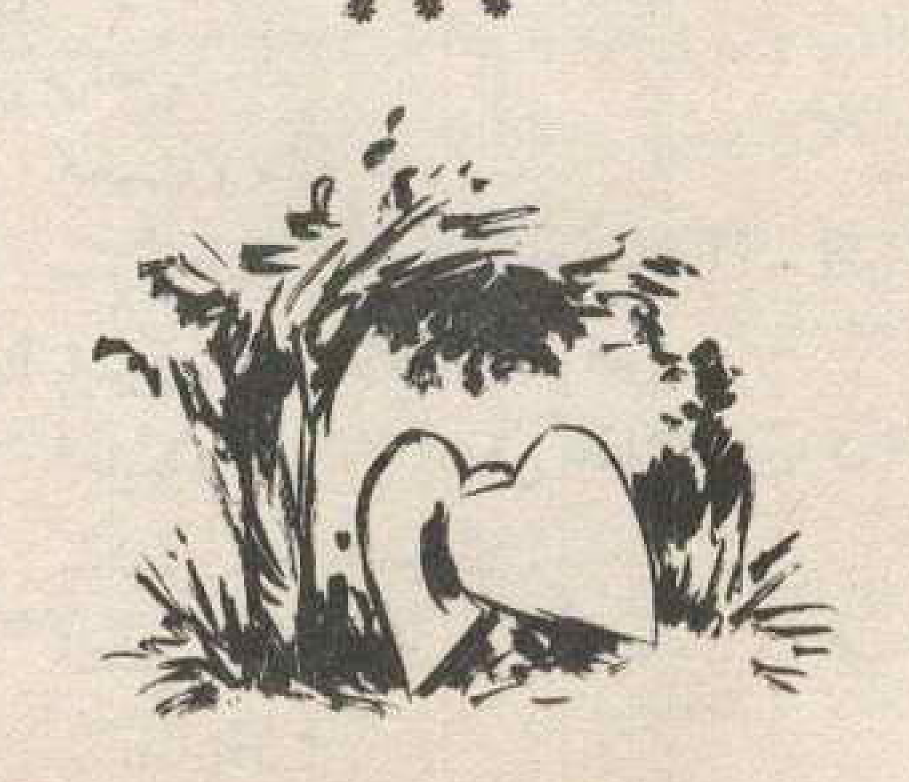
ظلت (مشيرة) صامتة لحظة ، ثم قالت :

— سأبتعد مؤقتاً يا (سنية هانم) .. سأبتعد حتى يمكننى اتخاذ قرار حاسم فى هذا الأمر .

ثم أردفت فى صرامة :

— ولكننى حينما أتخذ هذا القرار أيًّا ما كان ، فلن أتراجع عنه أبداً .

* * *



١٢ — الفراق ..

أشرق صباح اليوم الخامس ، و(رأفت) يرتدى ملابسه فى حجرته ..

خرج إلى حديقة السراى يتأمل الأشجار ، التى أصبحت ترمز دائماً إلى حبه لـ (مشيرة) ..

توقف بصره عند (أم الأشجار) ، تلك الشجرة الضخمة ، التى تتوسط الحديقة ، والتى شهدت لقاء حبهما الأول ، وسار نحوها ، وأخذ يتحسس جذعها براحته فى رفق وحنان ، وقد افترّ ثغره عن ابتسامة حنون ، وهو يستعيد ذكرى هذا اللقاء ..

تسارعت الذكريات ، لتذهب به إلى التهمة الملفقة ، فقطب حاجبيه ، واستند بظهره إلى الجذع الضخم ، وهو يفكر فى القرار ، الذى اتخذه هذه الليلة ..

كان قد قرّر أن يذهب إلى (مشيرة) ، ويطلب منها الزواج ، حتى ينهى ذلك الصراع السخيف بينه وبين أخويه ..

مرّ الوقت عليه بطيئاً ، حتى أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة ، فأسرع الخطا إلى الجمعية ،

متجاوزاً الحقول الخضراء ، التى شعر أنها تبعث فى قلبه البهجة والأمل بخضرتها هذا الصباح ، ولم يكد يعبر باب الجمعية ، ويقع بصره على مكتبها الخالى ، حتى سأل الموظفين فى قلق :

– ألم تصل الآنسة (مشيرة) بعد ؟

أجابه أحد الموظفين فى برود :

– لن تحضر هذا الصباح ، لقد تقدمت بطلب إجازة مرضية .

عقد حاجبيه ، وهو يسأل فى توتر :

– إجازة مرضية ؟!.. أهى مريضة ؟

هزّ الرجل رأسه نفياً ، وقال :

– كلاَّ ، ولكن يبدو أنها كانت تحتاج إلى الراحة ، بعد ما فعلتموه بها .

شعر (رأفت) بالألم يعتصر قلبه ، فغمغم بعد وهلة من الصمت :

– هل يمكننى الحصول على عنوانها فى القاهرة ؟

تبادل الموظفان نظرة غامضة ، ثم قال أحدهما :

– لقد طلبت منا ألا نبلغك إياه .. أنت بالذات .

اتسعت عينا (رأفت) دهشة ، ثم غمغم فى ذهول :

– يا إلهى ! !

نطق بالكلمة ، ثم دار على أعقابه ، وأسرع يبتعد ، وكأنه يرفض أن يسمع كلمة أخرى زائدة .. وفى أعماقه انطلق سؤال مؤلم حائر :

– لماذا فعلت ذلك ؟... لماذا ؟

السؤال نفسه وجهه (فهمى حسنين) لابنته فى دهشة ، فأجابته (مشيرة) فى هدوء :

– شعرت أننى أحتاج إلى ذلك يا أبى .

تبادل الأب والأم نظرات مشفقة حيرى ، ثم ربَّتَ الأب على كتف ابنته ، وقال فى حنان :

– إذا كانت القرية لا تعجبك فيمكننى أن ...

قاطعته (مشيرة) :

– ليس هذا هو السبب يا أبتاه .

عاد يسألها ، وقد اشتدت حيرته :

– أهو العمل نفسه ؟

هزّت رأسها نفياً ، فأشعل إحدى سجائره فى توتر ، ونظر إلى الأم ، التى نهضت تحيط ابنتها بذراعيها ، وتسألها فى حنان :

– أفصحى عما يجول بنفسك يا بنيتى ، لا تخبئى مشاعرك على أمك ، التى ليس لها سواك .

شعرت (مشيرة) ، فى هذه اللحظة ، بحاجتها حقًّا إلى حنان أبويها ومشورتهما ، ولكنها كانت عاجزة فى الوقت نفسه عن مصارحتهما بسبب عودتها الحقيقية ، فلزمت الصمت ، ولكن أبويها شعرا بحيرتها ، فقال الأب فى حزم :

– سأبحث بنفسى عن السبب .

خشيت (مشيرة) أن يتوصل والدها إلى ما يجعله يسىء فهم الأمر ، فرفعت رأسها إليه ، وقالت فى حزن :

لقد اتهمونى بالرشوة .

هتف الوالد فى استنكار :

– رشوة ؟!.. أى حقير فعل هذا ؟

وخبطت الأم بكفها على صدرها ، وهتفت :

– ويلتى !! لن تعودى إلى هذه القرية أبداً .

أسرعت (مشيرة) تقول :

– لقد اتضحت براءتى فى اليوم نفسه ، ولكن الاتهام أتعب أعصابى ، فقررت العودة ، حتى أستعيد هدوئى .

ساد الصمت لحظة ، ثم قال الوالد فى إشفاق :

– ينبغى ألا يقلقك مثل هذا الأمر يا بنيتى ، فستواجهين مثله كثيراً فى المستقبل ، وخاصَّة إذا ما كنتَ حازمة فى عملك ، ترفضين المجاملات والوساطات .

غمغمت فى انكسار :

– هذا صحيح يا والدى .

عاد الوالد يُرَبِّت على كتفها ، وقال :

– هذا منزلك يا بنيتى ، وسيسعدنا بقاؤك ، حتى تهدأ أعصابك .

غادر الوالد منزله إلى عمله ، وهو يدعو لابنته بالراحة والتوفيق ، ولكن قلب الأم لم يهدأ ..

عجيبة هى قلوب الأمهات ..

إنها لا تخطئ أبداً فهم قلوب الأبناء ..

علاقة عجيبة تلك التى تربط الأم ببنيها ..

إنها تختلف تماماً عن علاقة الأب بأبنائه ..

ربما لأن الأمومة غريزة ، ولأن الأبوة اكتساب ..

فالأنثى - أية أنثى - تشعر بغريزة الأمومة منذ طفولتها ..

إنها تحنو على دميتها ، وتعاملها كابنتها ، ويتصاعد الشعور فى أعماقها حينما تنضج ، فتميل إلى رعاية الصغار ، وغمرهم بحنانها ، وتتطلع فى شوق إلى الأمومة الحقيقية ..

أما الرجل ، فهو لا يشعر بالأبوّة ، إلا عندما يصبح أباً بالفعل ، وعندما يرى مولوده ، ويسمع بكاءه ، ويداعبه ..

وربما لأن الأم تلتصق بمولودها منذ تكوُّنه فى رحمها ، وتعيش فى هذا الالتصاق تسعة أشهر كاملة ، يختلط فيها نبض قلبيهما ، وتمتزج مشاعرهما ..

لهذا أو لذاك ، أدركت أم (مشيرة) أن ابنتها

لم تفصح عن السبب الحقيقى لإجازتها ، فانتظرت حتى غادر الوالد منزله ، واقتربت من ابنتها ، وضمتها إلى صدرها ، وهى تقول فى حنوّ بالغ :

- ماذا بك يا بنتى ؟

وهنا لم تستطع (مشيرة) كتم ما بقلبها ..

انفجرت فجأة بالبكاء ، بين ذراعى أمها ، وبلا مقاومة ، اندفعت تروى لها كل شىء ..

واستمعت إليها الأم فى حنان ، وهى تشاركها انفعالاتها ، حتى ساد بينهما الصمت تماماً ، وهنا أخذت الأم تتحسس شعر ابنتها فى حنان ، وقالت :

- لقد أحسنت التصرف يا (مشيرة) .. أنا واثقة من أن (رأفت) هذا يحبك ، ولكن ابتعادك عنه فى هذه اللحظة ، فرصة مناسبة ، لاختبار مشاعره ، فلو أنه يريدك حقًّا ، فسيجوب الأرض بحثاً عنك ، ولو أن حبه لك واهٍ ضعيف ، فستنتهى الأمور عند هذا الحد .

كان منطق الأم بسيطاً واقعيًّا ، واستراحت له

(مشيرة) ، فدفنت وجهها فى صدر أمها ، واسترخت فى أمان ..

ولكن عائلة (رفعت باشا) كلها لم تسترح ..

لقد عاد (رأفت) إلى منزله حزيناً ..

حزيناً حتى أن قناع الجمود الذى يكسو وجهه قد انهار ، وكشفت ملامحه عن حزنه لأول مرة ..

حزيناً حتى أن حزنه فطر قلب والدته ، وهى تلمحه يعبر باب حديقة السراى ، فارتجفت وهى تسأله :

ـ ماذا أصابك يا (رأفت) ؟

تطلع (رأفت) إليها ، وهى تجلس مع شقيقيه ، حول المنضدة الصغيرة فى حديقة السراى ، وغمغم فى شرود :

ـ لقد رحلت .

كان من الواضح أنه يعنى (مشيرة) ، ولكن (صابر) سأله فى صوت مرتجف :

ـ من تلك التى رحلت ؟

لم يهتم (رأفت) بإجابة السؤال ، وإنما عاد يغمغم فى شرود :

ـ رحلت ، ورفضت أن تترك لى عنوانها .

اخترق صوته الحزين قلب الأم ، فارتجفت شفتاها ، وعجزت عن النطق ، فى حين قطب (أحمد) حاجبيه ، دون أن ينبس ببنت شفة ..

وفى خطوات بطيئة متثاقلة ، اتجه (رأفت) إلى السراى ، وغاب داخله ..

تبادلت الأم نظرة ملتاعة مع ولديها ، ثم غمغمت فى ألم :

ـ لم أعد احتمل هذا السراى .. سنعود اليوم إلى القاهرة ..

لم يعلق أىٌّ من ولديها على عبارتها ، فى حين نهضت هى ، وذهبت إلى حجرتها ، وفى أعماقها تولد صراخ ، يهتف فى إصرار :

ـ أنتِ المسئولة ، أنتِ التى مزّقت قلب ابنك .

أما (رأفت) ، فقد جلس فى حجرته صامتاً ، مصدوماً ..

لم يفهم سرّ رحيل (مشيرة) المفاجئ ..

تصوّر أنها تعلن رفضها له ، بعد ما أصابها على يد شقيقيه ..

وكان هذا يفوق صلابته ، واحتماله ..

ودون أن يدرى سالت من عينيه دمعة حزينة ..

دمعة تنعى الفراق ..

تنبّه إلى دموعه فجأة ، حينما سمع طرقاً هادئاً على باب حجرته ، فتمالك جأشه ، وهو يغمغم :

– من بالباب ؟

تحرّك الباب فى هدوء ، وظهر على عتبته (صابر) ، الذى بدا متخاذلا خجولا ، ولكن (رأفت) أشاح بوجهه عنه ، فاقترب منه (صابر) فى هدوء ، ووضع يده على كتفه ، مغمغماً :

– أنا آسف يا (رأفت) .

ابتسم (رأفت) فى ألم ، وقال :

– جاء أسفك متأخراً يا (صابر) .

امتلأت لهجة (صابر) بالأسف ، وهو يقول :

– لست أدرى كيف فعلت ذلك ، ولكننى فكرت

فى الأمر كثيراً ، ووجدت أننا كنا أنانيين أنا و (أحمد) وأنك فى الواقع الوحيد ، الذى يستحق (مشيرة) .. أنت الوحيد الذى وقف إلى جوارها ، فى الوقت الذى حاولنا نحن فيه إيذاءها .

غمغم (رأفت) فى حزن :

– ليت رأيك هذا جاء مبكّراً يا (صابر) .

أطرق (صابر) برأسه ، وغمغم :

– والدتنا تريد العودة إلى القاهرة .

عقد (رأفت) حاجبيه ، وقال :

– لن أعود .

غمغم (صابر) :

– يبدو أن (أحمد) يشاركك رغبتك ، فقد غادر السراى فى سيارة الأسرة ، وكأنه يحاول منع والدتى من السفر .

تمتم (رأفت) فى ضيق :

– أو يحاول ارتكاب حقارة أخرى .

قال (صابر) فى ألم :

– كلا .. لا أظن أنه يفعل .

ابتسم (رأفت) فى مرارة ، وقال :

– حتى لو فعل ، لم يعد ذلك يهم .. لقد افترقنا أنا و (مشيرة) .. افترقنا إلى الأبد .

* * *



١٣ – الضياع ..

لم يشعر (رأفت) بقدوم المساء فى هذه الليلة ..

لم يشعر به وهو جالس فى مكانه صامتاً ، لايتحرك قيد أنملة ، وكأنما تحوّل إلى تمثال من الفخار ..

لقد انتابه فى ذلك اليوم شعور بالضياع ..

ضياع عجيب ، كالذى يشعر به تائه فى صحراء قاحلة ..

أدهشه هذا الشعور بعض الوقت ، على الرغم من استسلامه له ..

أدهشه لأنه لم يشعر بمثله من قبل ، ولم يعهده فى نفسه أبداً ..

لم يتحرك قط ، حتى شعر بأقدام تخطو داخل حجرته ، فالتفت ليجد أمه تقول فى قلق :

– (رأفت) .. أخوك لم يعد حتى الآن .

سألها فى هدوء :

– من ؟

أجابت فى توتر :

– (أحمد) .. لقد غادر السراى فى السيارة منذ الصباح، دون أن يعلن عن وجهته، ولم يعد حتى الآن.

قال بلهجة شديدة الجفاف:

– هذا لا يعنينى.

هتفت فى استنكار:

– كيف يا (رأفت)؟.. إنه شقيقك الأكبر!!

أجاب فى برود:

– لم يعد كذلك.

تراجعت (سنية هانم) فى ذعر، وهى تهتف:

– (رأفت)!!

لم يبد عليه سماعها، وإنما استطرد فى برود عجيب:

– لقد تسبب فى ضياع (مشيرة)، ولن أغفر له هذا أبداً.

هوت (سنية هانم) جالسة على طرف فراشه، وقد تثلجت أطرافها..

هالها ما أصاب أبناءها من تمزق وتفرق..

وشعرت فى أعماقها أنها المسئولة عن ذلك..

لم يكن أحدهم يعلم أنها المسئولة عن رحيل (مشيرة)، ولكنها هى كانت تعلم..

تمزقت، وهى تعترف لنفسها بهذه الحقيقة..

لقد أرادت أن تغلق الهوة، التى نشبت بين أبنائها، فإذا بها تزيدها اتساعاً..

أرادت أن تبنى، فهدمت..

أرادت أن توصل، فقطعت..

هالها ذلك الشعور بالذنب، الذى ملأ جوانبها، حتى كادت تعترف لابنها بفعلتها، لولا أن منعتها طبيعتها الحازمة، فنهضت، وغادرت حجرته بأقدام متثاقلة، دون أن يلتفت إليها..

ذهبت كعادتها، كلما ضاقت بها الأمور، إلى حجرة الصالون، وأخذت تملأ عينيها بصورة (رفعت باشا)، وغمغمت وكأنها تسأله المشورة:

– ماذا أفعل يا (رفعت)؟ لقد دمرت كل شىء.

مرة أخرى صنع عقلها الباطن حواراً وهمياً مع زوجها، فخيل إليها أنها تسمعه يقول:

– لقـد أخطأت يا (سنيـة) . ما كان لك أن تتدخلى فى الأمر .

– أردت أن أنقذ الأسرة .

– لقد دمّرت الأسرة ، بدلاً من أن تنقذيها .

– كان ينبغى لـ (مشيرة) أن ترحل .

– خطأ .. ما من قصة حب انتهت برحيل أحد المحبّين .

– ماذا كنت أفعل إذن ؟

– تكونين عادلة .

– كيف ؟

– كانت تحب (رأفت) ، وهـو يحبهـا ، فلماذا لا يتزوّجان ؟

– كان هذا سيغضب أشقاءه .

– امنعيهم هم من الغضب إذن ، فلا هو ولا الفتاة أخطآ بحب كل منهما الآخر .

– لم أستطع .

– وهكذا فشلت .

– ليتها تعود ، فتنصلح الأمور .

– التمنى وحده لا يكفى .

– وماذا أفعل ؟

انقطع ذلك الحوار الوهمى بغتة ، عندما اندفع (صابر) إلى الحجرة ، هاتفاً :

– (أحمد) على الهاتف يا أماه .. إنه يتحدث من القاهرة .

أسرعت (سنية هانم) إلى الهاتف فى لهفة ، وصاحت :

– (أحمد) .. أين أنت يا ولدى ؟.. لماذا ذهبت إلى القاهرة ؟

جاءها صوته عبر أسلاك الهاتف ، وهو يقول فى هدوء :

– لدىّ مهمة عاجلة فى القاهرة يا أماه ، سأحاول إنجازها ، والعودة بأسرع ما يمكننى .

هتفت فى إشفاق :

– أية مهمة هذه يا ولدى ؟

ساد الصمت لحظة ، ثم سمعت صوته يقول :

- إنها مهمة خاصة يا أماه .

لم تجد (سنية هانم) ما تقول ، فغمغمت :

- صحبتك السلامة يا ولدى .

انتهت المكالمة فى سرعة ، وتنهدت (سنية هانم) فى ارتياح ..

لقد اطمأنت على أحد أبنائها على الأقل ..

فى الوقت نفسه ، الذى كان (أحمد) يتحدث فيه مع والدته ، كانت (مشيرة)، ترقد فى فراشها صامتة..

كانت تفكر فى (رأفت) ..

فى حبها له ، ولهفتها عليه ..

كانت تتساءل : هل سيسعى إليها كما تقول والدتها، أم أنه سيستسلم للأمر ..

سيؤلمها كثيراً أن يستسلم لفقدها ..

سيؤذيها ألا يحاول البحث عنها ..

ولكنها اعترفت أن هذا خير اختبار لمشاعره ..

تذكرت كيف كان ذلك اللقاء ، الذى اعترف كل منهما للآخر فيه بحبه ..

امتلأت نفسها نشوة وهى تتذكر ذلك ..

أغلقت عينيها ، وهى تسبح فى بحر الذكرى ..

لماذا لم ينطق (رأفت) بكلمة الحب فى هذا اللقاء؟..

ليته فعل ، فقد لا يمهلها القدر فرصة أخرى ..

ومع الذكرى شعرت بالضياع ..

الضياع من دون (رأفت) ..

من دون الرجل الذى تحب ..

وما أبشعه من ضياع !!

* * *



١٤ ـ الزائر ..

استيقظت (مشيرة) متعبة، فى صباح اليوم السادس ..

إنها على وجه الدقة غادرت فراشها فحسب ، فهى لم تذق النوم لحظة واحدة ، طوال الليل ..

كان عقلها يفكر فى (رأفت) ..

ليس عقلها فقط ، وإنما كانت تفكر فيه بقلبها ..

بمشاعرها ..

بأحاسيسها ..

بخلجاتها ..

بأعماقها ..

كانت تفكر فيه بكيانها كله ..

وكانت تتمنى رؤيته ..

ملأت هذه الأمنية نفسها ، حتى أصبحت أملها الوحيد فى الحياة ..

جلست أمام مرآة حجرتها ، تتأمل وجهها فى سكون ..

كانت شاحبة ، ذابلة ، بخلاف عادتها ..

تناولت أحمر الشفاه الخاص بها ، وأخذت تتأمله فى شرود ، عندما دلفت والدتها إلى حجرتها ، وقالت وهى تبتسم فى حنان :

ـ هناك زائر ينتظرك فى حجرة الصالون يا (مشيرة).

ارتجف قلبها ، وهى تحدِّق فى وجه أمها بدهشة ، ثم هتفت فى فرحة ، لم تحاول إخفاءها :

ـ أهو (رأفت) ؟

اتسعت ابتسامة والدتها ، وهى تقول :

ـ إنه لم يفصح عن اسمه ، ولكنه قال إنه أحد أفراد عائلة (المندور) .

تهللت أسارير (مشيرة) ، وقالت فى ارتباك :

ـ إنه (رأفت) ولا شك ، كيف عثر علىّ بهذه السرعة .

أسرعت إلى صيوان ملابسها ، واحتارت طويلا ، قبل أن تنتقى ثوباً أخضر اللون ، وكأنها تحاول تذكيره بلقائهما وسط أشجار حديقة السراى ،وصففت شعرها

فى عناية ، ووضعت مكياجها فى دقة ، وكأنها تحاول إخفاء شحوبها ، ثم ألقت على نفسها نظرة طويلة فى المرآة ، وذهبت إلى لقاء (رأفت) ..

كان البشر يعلو وجهها ، وهى تعبر حجرة الصالون ، ولكنها توقفت بغتة ، واختفى البشر من ملامحها حينما رأت الزائر ، وسمعته يقول فى هدوء :

ـ صباح الخير يا آنسة (مشيرة) .

كان (أحمد المندور) ..

حدّقت فى وجهه لحظة ، بمزيج من الدهشة ، وخيبة الأمل ، ثم عقدت حاجبيها ، وقالت فى حنق :

ـ ماذا تريد ؟

أجابها فى هدوء :

ـ أردت زيارتك فى منزلك .

ابتسمت فى مرارة ، وقالت :

ـ أهى محاولة لتلفيق تهمة جديدة ؟

ظهر الضيق فى ملامحه ، وقال :

ـ كلاَّ يا آنسة (مشيرة) ، إنها محاولة لإصلاح ما أفسدته التهمة القديمة .

غمغمت فى سخرية مريرة :

ـ قديمة ؟! .. لقد كان ذلك أمس الأول فحسب .

كان من الواضح أن (أحمد) يحاول السيطرة على طبيعته الجامحة ، حتى لا ينفجر أو يثور فى وجهها ، وكان من الواضح أيضاً أن أعصابه لم تعد تحتمل ، فقد زفر فى قوة ، وقال :

ـ لقد حضرت من أجل (رأفت) .

شحب وجهها ، وتراجعت وهى تغمغم فى ذعر :

ـ ماذا أصابه ؟

أجابها فى هدوء :

ـ إنه فى خير حال ، ولكننى حضرت للحديث عنه .

أشاحت بوجهها عنه ، وهى تقول فى صرامة :

ـ لست مستعدة للحديث معك .

أمسك كتفها فجأة ، وبقوة ، وقال فى صرامة أشد :

ـ انتظرى هنا .. لقد قضيت أمس كله فى

البحث عن عنوانك ، لقد وصلت إلى القاهرة قبل الظهر ، ورفضت وزارة الزراعة إعطائى عنوانك ، فذهبت إلى الكلية ، ونجحت بعد جهد كبير فى إقناع الموظف المسئول عن دفعتك ، حتى أعطانى عنواناً ، ذهبت إليه ، فأخبرونى أنكم قد انتقلتم إلى مسكن آخر ، ولم يكن هناك من يعرفون عنوانكم الجديد فى دقة ، فحضرت إلى الحى ، وبحثت فى كل عمارة ، وكل شقة ، حتى عرفت مكانكم بعد منتصف الليل ، ولما كان الوقت غير مناسب — حينذاك — انتظرت إلى الصباح ، ولست مستعدًا للعودة ، بعد كل هذا الجهد، دون أن أنجح فى مسعاى .

كانت تستمع إليه فى دهشة ، حتى انتهى من حديثه ، فغمغمت :

— ولماذا فعلت كل هذا ؟

تذكّرت فجأة عرضه القديم بالزواج منها ، فأردفت فى حدة :

— هل تظن أننى سأقبل الزواج منك ، لمجرد أنك فعلت كل هذا ؟

هتف فى غضب :

— ومن قال إننى أريد الزواج منك ؟

ثم شعر بسخافة عبارته، فزفر مرة أخرى، وقال :

— إنك ستتزوجين (رأفت) .

اتسعت عيناها فى دهشة ، وغمغمت :

— ماذا تعنى ؟

أطرق برأسه ، وهو يقول :

— لقد أخطأت فى حقك يا آنسة (مشيرة) ، وأنا أرجو صفحك .

غمغمت وقد تضاعفت دهشتها :

— صفحى .

قال دون أن يرفع عينيه إليها :

— نعم يا (مشيرة) .. من العسير على شخص مثلى أن يطلب الصفح ، ولكننى شعرت فجأة بمدى الخطأ الذى وقعت فيه .

صمت لحظة ، ثم أردف فى حزن :

– شعرت بذلك حينما رأيت الحزن لأول مرة ، على وجه (رأفت) .. لقد كشفت فى هذه اللحظة كيف يحبك ، وندمت على ما فعلت ، وأنا أشعر أننى السبب فى رحيلك ، وفراقكما ، ولن يزول ندمى هذا إلا إذا عدتما حبيبين .

أرادت أن تخبره أنهما ما زالا حبيبين ..

أرادت أن تفعل ، ولكنها عجزت ..

كل ما استطاعت أن تقوله هو :

– ولماذا لم يحضر (رأفت) بنفسه ؟

ابتسم (أحمد) فى مرارة ، وقال :

– لأنه تصوّر برحيلك أنك أنت التى ترفضينه ، ولقد حطّمه هذا تماماً .

قالت فى حزن :

– كان ينبغى أن يقاتل من أجلى .

هزّ (أحمد) رأسه نفياً ، وقال :

– الرجل يقاتل فقط من أجل من يحب

يا (مشيرة) ، ولكنه لا يقاتل أبداً من أجل شخص يظن أنه يرفض .

وجدت (مشيرة) نفسها تتأمل (أحمد) هذه المرة فى حيرة ...

لقد بدا لها شخصاً مختلفاً ، عن ذلك الذى عرفته فى سراى (رفعت باشا) ..

الآخر كان مغروراً متكبراً ، يتحدث من طرف أنفه ، ويولى اهتمامه كله لعضلاته ، دون الالتفات إلى عقله ..

أما هذا الذى يقف أمامها ، فهو أكثر نضجاً ، وتعقلا ، ورصانة ..

وجدت نفسها تسأله فى دهشة :

– ما الذى بدّلك إلى هذا الحد ؟

ابتسم ابتسامة شاحبة ، وقال :

– ربما لأننى – على الرغم من خشونتى – أحب (رأفت) حقًّا ، فهو حنون رقيق ، يحيطنا جميعاً بحنانه ، دون أن يفصح عن ذلك ، أو يتباهى به .

غمغمت فى حنان :

- هذا هو (رأفت) حقًّا .

أومأ (أحمد) برأسه موافقاً ، ثم نصب قامته ، وقال فى رصانة :

- هل يمكننى مقابلة والدتك ؟

جاء صوت الوالدة ، من باب الصالون ، وهى تقول فى حنان :

- هأنذا يا بنى .

ابتسم (أحمد) ، وقال فى لهجة رصينة جادة :

- إننى أطلب منك رسميًّا يد ابنتك (مشيرة) لشقيقى الأصغر (رأفت) .

تهللت أسارير (مشيرة) ، وخفضت عينيها فى خفر وحياء، فى حين ارتفع حاجبا الأم فى حنان، وغمغمت :

- سيكون عليك انتظار والدها يا بنى .

اتسعت ابتسامته وهو يقول :

- حسناً يا أماه .. سأنتظره .

* * *

١٥ - أحبك ..

جلست (سنية هانم) فى حجرتها أمام النافذة ، تتأمل بعينين دامعتين ابنها (رأفت) الذى جلس وحده فى الحديقة ، أسفل جذع الشجرة الضخمة ، التى تطلق عليها الأسرة اسم (أم الأشجار) ..

كان يجلس صامتاً ، حزيناً ، وقد ثنى ركبتيه ، وأراح فوقهما ساعديه الممدودتين ..

واعتصر الحزن قلب (سنية هانم) ..

كانت تشعر أنها المسئولة عما أصاب ولدها ..

وكانت تتعذب ..

كانت تراقبه منذ ساعتين ، وهو لم يتحرك أبداً ..

ملأ الندم قلبها ، وهى تتذكر حديثها الأخير مع (مشيرة) ..

هى التى طلبت منها أن ترحل ..

هى التى مزقت قلب ولدها ..

إنه يظن أن (مشيرة) قد رحلت فراراً منه ..

يظن أنها نبذته ..
أنها كرهته ..
وهى وحدها تعرف الحقيقة ..
هى وحدها سمعت (مشيرة) تعترف بحبها له ، عندما ذهبت لزيارتها ، فى الليلة التى سبقت رحيلها ..
ودّت فى هذه اللحظة لو أنها اعترفت له بذلك ..
ودّت لو أنها أراحت قلبه ، وانتزعت منه كل هذا العذاب ..
ولكنها لم تكن تجرؤ ..
كانت تخشى أن تفقد احترام ابنها لو فعلت ..
كانت تخشى أن ينقلب إليها غضبه وحزنه ..
من أجل هذا بكت ..
وتصارع الأمران فى عقلها ..
أتتركه لحزنه ، أم تعترف له ، وتتحمّل كراهيته لها ؟
هل يمكن حقًّا أن يكرهها ؟..
هل يمكن لابن أن يكره أمه ، لأنها أخطأت فى حقه؟

إنها تعلم أن الأم لا تكره ابنها أبداً ، مهما فعل بها.
ولكن ماذا عن الأبناء ؟..
وفى النهاية تغلب قلب الأم ..
قررت (سنية هانم) أن تعترف لابنها ، وتنتزع منه هذا الحزن ..
حتى ولو كرهها ..
ولو نبذها أو احتقرها ..
المهم أن يضيع حزنه ..
إنها ستحتمل كل شيء ، ما دامت ستعيد إلى شفتيه البسمة ..
اتخذت (سنية هانم) قرارها ، ونهضت من مقعدها فى وقار ، ثم ألقت نظرة أخيرة على ابنها ، ورفعت رأسها ، وسارت بحزم إلى الخارج ..
فى هذه اللحظة كان (رأفت) يجلس أسفل (أم الأشجار) ، غارقاً فى لجة من الأفكار ..
كانت أفكاره كلها تتجه إلى (مشيرة) ..
إلى حبه الأول والأخير ..

لماذا رحلت ؟..
لماذا تركته وحده ؟..
إنه لم يخطئ فى حقها ..
لم يتخلّ عنها أبداً ..
صحيح أن شقيقيه أهاناها ، ولكنه لم يفعل ..
عاد يتذكر — للمرة الألف — لقاءهما فى المكان نفسه ، الذى يجلس فيه ..
لماذا لم يخبرها فى هذه اللحظة أنه يحبها ؟..
لماذا لم ينطق بالكلمة التى ملأت كيانه كله ؟..
لماذا حرمها سماعها من بين شفتيه ؟..
شعر بالندم ، لأنه لم يفعل ..
تعلق بصره بأمه وهى تقترب منه ، وتساءل عن سرّ كل ذلك الحزن فى عينيها ..
آلمه حزنها ، على الرغم من حزنه ..
كان يحبها ويشعر نحوها بالحنان والعطف ..
كان يعلم كم عانت فى تنشئته ، وتنشئة شقيقيه ..
يعلم كم كبتت مشاعرها مرات ، من أجلهم ..

كم تعذّبت ، وتألمت ..
كان يحبها ؛ لأنها أمه ..
لم يكن يعلم أنها فى طريقها الآن لتحطم كل هذا الحب فى قلبه ..
فى طريقها لفقد احترامه ، من أجل راحته ..
اقتربت حتى صارت على بعد خطوة واحدة منه ، وفتحت فمها تهم بالاعتراف ، لولا أن برز (أحمد) فجأة من خلف جذع الشجرة الضخمة ..
حدّقت فيه بدهشة ، وهى تتساءل متى وصل إلى هناك ؟ ..
قدرت أنه وصل من باب الحديقة ، إلى ما خلف (أم الأشجار) ، وهى فى طريقها من حجرتها إلى الحديقة ..
ولكن كيفية وصوله لم تشغلها كثيراً ، وإنما أسعدها قدومه ، فهتفت فى فرح :
— (أحمد) !!
أدار (رأفت) عينيه إلى شقيقه فى غضب ، ولكن

الابتسامة الهادئة التى تغطى وجه (أحمد) أزاحت غضبه جانباً ، وأضيف إليها صوته الهادئ ، وهو يقول :

- أما زلت تجلس هنا يا (رأفت) ؟

أجابه (رأفت) فى هدوء :

- وماذا تريدنى أن أفعل ؟

ابتسم (أحمد) ، وقال :

- ترعى هذه الأشجار .

عقد (رأفت) حاجبيه ، وغمغم فى حيرة :

- الأشجار ؟!

اتسعت ابتسامة (أحمد) ، وهو يقول :

- ألم تَعِدْ (مشيرة) بذلك ؟

عاد الحزن إلى عينى (رأفت) ، وهو يغمغم :

- (مشيرة) !!.. وأين هى الآن ؟

سأله (أحمد) فى هدوء :

- هل تريدها حقًا يا (رأفت) ؟

أومأ برأسه إيجاباً ، وغمغم :

- بأكثر مما تتصور يا (أحمد) .

بدت ابتسامة (أحمد) شديدة الحنوّ فى عينى الأم ، وهو يقول :

- بل يمكننى أن أتصوّر .

وفجأة هتفت (سنية هانم) فى فرح :

- (مشيرة) ؟!

ارتجف (رأفت) وهو يسمع صيحة أمه ، والتفت فى حدّة إلى حيث تنظر ، واختلج قلبه فى قوة ، وصاح فى حنان :

- يا إلهى !!.. هل أحلم ؟

كانت (مشيرة) تقف إلى جوار (أحمد) ، فى ثوبها الأخضر الجميل ، الذى بدا متناسقاً مع أشجار الحديقة ، وابتسامة حب تملأ شفتيها ، فى حين غمغم (أحمد) فى حنان :

- لقد تسللنا إلى هنا لنفاجئك .

نهض (رأفت) يملأ عينيه بجمال (مشيرة) ورقتها ، ووقف كل منهما يلتهم الآخر بعينيه ، دون أن يشعرا

بدموع الحنان ، التى سالت من عينى (سنية هانم) ، ولا بانصرافها مع (أحمد) ..

كان الحب الذى يملأ قلبيهما قويًّا جارفاً ، جرف أمامه كل المشاعر الأخرى ..

وفرد (رأفت) كفيه أمام (مشيرة) ، وفى هدوء استكان كفاها الرقيقتان فى راحتيه ، وتضرّج وجهها بحمرة الخجل ، وهى تغمغم :

– ألن ترعى الأشجار ؟

همس فى عشق :

– سنرعاها معاً ، وستعود إلى هذه الحديقة إشراقتها .

ثم استطرد فى حنان :

– وسنبدأ بأم الأشجار .

خفضت عينيها فى حياء ، وهى تسأله :

– لماذا ؟

أجابها فى حب :

– لأنها شهدت لقاء حبنا الأول .

ثم ضم كفيها إلى صدره ، وهمس :

– (مشيرة) .

رفعت عينيها إليه ، وهى تهمس :

– نعم يا (رأفت) .

همس بكل فيض المشاعر فى أعماقه :

– أحبك .

هتفت فى سعادة :

– لقد قلتها أخيراً يا (رأفت) .

وابتسمت أم الأشجار .... أشجار الحب .

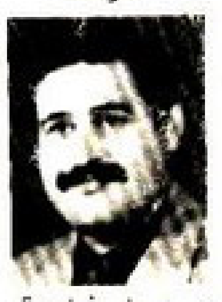
[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع : ٧٨٤٨



— سلسلة رومانسية رفيعة المستوى —

المؤلف



د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

اشجار الحب

وجدت (مشيرة) نفسها فجأة غارقة فى الحب ..
وجدت نفسها عاشقة ولهة ..
ولكن من أحبت ؟ .. أهو (أحمد) ، أم (صابر) ، أم (رأفت) ؟ من منهم سيفوز بحبها ، تحت ظل أشجار الحب ؟



الثمن فى مصر ٧٥ ق